تطريز

فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله بن حمد العُصيمي

حفظه الله تعالى

علىٰ

فرضِ طلَبِ العِلْمِ

للعلَّامة أبي بكْرٍ الآجُرِّي

المتوفىٰ سنة ٣٦٠، رَحِمَهُ اللَّهُ

النُّسخة الإلكترونيَّة (الأولىٰ)

الشيخ لم يراجع التفريغ

http://attafreegh.com/

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمد لله ربنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فهذا هو **الدرس الثالث** من برنامج **الدرس الواحد التاسع**، والكتاب المقروء فيه هو كتاب «**فرْض طلب العلم**» للحافظ أبي بكر الآجُرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

وقبل الشروع في إقرائه، لابد من ذكر مقدِّمتين اثنتين:

المقدمة الأولىٰ: التعريفُ بالمصنِّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد.

المقصد الأول: جرُّ نسبه؛ هو الحافظُ الكبيرُ محمد بن الحُسين بن عبد الله الآجُرِّي البغدادي، يُكنىٰ بأبي بكر.

المقصد الثاني: تاريخ مولده؛ اختلف المترجِمُون له في تعيين السنة ولادته علىٰ أقوال متفاوتة، أقدمها أنه وُلِد في سنة أربعٍ وستين بعد المائتين (٢٦٤)، وأحدثها أنه وُلِد سنة ثمانين بعد المائتين (٢٨٠).

المقصد الثالث: تاريخ وفاته؛ تُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ بالمحرَّم سنة ستين وثلاثمائة (٣٦٠)، وله من العُمُر ثمانون سنة أو يزيد، علىٰ الاختلاف المتقدم في ميلاده، فرحمه الله رحمة واسعة.

المقدمة الثانية: التعريف بالمصَنَّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضًا.

المقصد الأول: تحقيق عنوانه؛ اسم هٰذا الكتاب «فرضُ طلبِ العلم»، فهو المُثبَت علىٰ النسخة الخطية، وذكر ابن خيرٍ الإشْبِيلي في فِهْرسه كتابًا نسبه للآجُرِّي اسمه «فضل طلب العلم»، وأخشىٰ أن يكون مُحرَّفًا، وأن المذكور عند ابن خيرٍ في «فهرسه» هو هٰذا الكتاب بعينه.

المقصد الثاني: بيان موضوعه؛ موضوع هٰذا الكتاب هو بيان العلم المفروض الذي ينبغي أن يجتهد العبد في تحصيله.

المقصد الثالث: توضيح منهجه؛ جرىٰ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ طريقة أهل الحديث، مُسنِدًا ما يذكره فيه من المرويَّات، عاقدًا تراجمَ متنوِّعة تدلُّ علىٰ مقاصده في الكتاب، ومع جَلالة هٰذا الكتاب إلا أنه وقع سقطٌ في مواضع متعددة منه، تبعًا لسوء النسخة الخطية التي نُشِر عنها، وعجز ناشره عن قراءة بعض الكلمات، لما اعترىٰ النسخة الخطية من رطوبة وتغير؛ أحالت بعض الحروف، وطمست جملًا من القول والكلام.

قال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

الحمد لله المُتفضِّل علينا بالنِّعَم القديمة والأيادي الجميلة، حمد من يعلم أن مولاه الكريم يحب الحمد، فله الحمد علىٰ النِّعَم التي لا تُحصىٰ، وكيف تُحصىٰ، وقد قال جلَّ ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم ٣٤]، وأسأله الزيادة بفضله والمعونة علىٰ شكره، إنه ذو فضل عظيم، وصلَّىٰ الله علىٰ البشير النذير السراج المنير سيِّد الأوَّلين ذاك محمدٌ، ورسولُ ربِّ العالمين ﷺ، وعلىٰ آله الطيبين وأصحابه المنتخبين وأزواجهم وأمهَّات المؤمنين، رحمة الله عليهم أجمعين.

افتتح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالىٰ** كتابه هٰذا بخطبةٍ جعل مُقدَّمها حمدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذكر في نعت الحمد قوله: (المتفضِّلِ علينا بالنعم القديمة) أي المتقدمة السابقة، فإن العبد لا يزال مُقلَّبا بين أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُذ كان نطفة حتىٰ خرج إلىٰ هٰذه الدنيا، وقوله: (والأيادي الجميلة) الأيادي جمع أيدٍ، والمراد بها الفواضل والمحاسن والنعماء التي يُولِيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد.

***

أما بعد..

فإن سائلًا سألَ عن العِلْمِ الذي يجب علىٰ المسلم علمه والعمل به، ولا يسعه جهله ولا يكون به معذور إذا جهله، فأحب السائل أن يعلمَ من ذلك ما يرغِّبُه في طلب العلم الذي لابد له منه، خشية أن يطلب من العلوم ما غيره أَولىٰ به، والله ولي التوفيق.

الجواب: وبالله التوفيق للصواب من القول والعمل:

اعلم -رحمنا الله وإيَّاك- أنه واجب علىٰ كل مسلم عاقل بالغ، غنيًّا كان أو فقيرًا، شريفٌ وغير شريف، حرٌّ أو مملوكٌ، ذكرٌ أو أنثىٰ، صحيح، أول علمٍ معرفة الله سبحانُه بصفاته، وعلمُ ما تعبَّدهم الله عَزَّ وَجَلَّ من عبادته، وأداء فرائضه، واجتناب محارمِه، وعلم الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، وعلم ما تعبَّدهم به حتىٰ يكونَ لله عَزَّ وَجَلَّ ....، وعلمُ معرفة ... يتخذه عدوًّا، وعلم معرفة أنفسهم الأمَّارة بالسوء علىٰ ... الله ....، بطلب علم ما ذَكَرْت، فقد أراد الله به خيرا.... .

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن تصنيف هٰذا الكتاب وقع جوابًا لسؤال سائل سأل عن (العلم الذي يجب علىٰ المسلم علمه والعمل به، ولا يسعه جهله، ولا يكونُ به معذورًا إذا جهله)، وهذا دال علىٰ وُفور عقل السائل؛ لعنايته بالسؤال عما ينفعُه، والسؤال إنما يُمدَح ويُحمَد بقدر منفعته، فإن الاستفهام

عن شيء لا يُراد إلا للوصول إليه، فإذا كان المراد الوصول إليه عظيمًا كان السؤال عظيمًا، وهذا السؤال سؤالٌ عن أمر عظيم يتعلَّق بالعلم (الذي يجب علىٰ المسلم علمُه، والعملِ به، ولا يسعُه جهلُه)؛ أي: لا يكون في فسحةٍ وسعة من الجهل به، وتِلْكُم الفسحة أنه لا يكون معذورًا إذا جهله، فالمرء له فسحة إذا كان له عُذرٌ، أما إذا لم يكن له عذر في أمره فإنه لا فسحة له، وأَوْلىٰ ذلك ما ذكره السائل في سؤاله من العلم الذي يتأكَّد علىٰ كل أحد، وأحب السائل من ذلك (ما يُرغِّبه في طلب العلم الذي لابد له منه خشية أن يطلب من العلوم ما غيره أولىٰ به)، وهذا هو القانون السَّوِي فيما ينبغي أن يجتهد الإنسان في طلبه، فإنَّ الذي يَلزمك من العلم هو ما تتقرَّب إلىٰ الله ﷻ به، فحمْلُك علىٰ نفسك في تحصيل المهمَّات؛ دال علىٰ حسن أخذك للعلم، أما الذي يضرب في العلم خبطَ عشواء، ولا يعرف الغاية مما يُحصِّله؛ فإنه يُضيِّع عُمُرَه، وينفق زمنه فيما يكون غيرُه أولىٰ بالاشتغال منه، وسيُنوِّه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بهذا المعنىٰ فيما يُستقبَل.

وقد أجاب المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عن هٰذا السؤال موطِّئًا علىٰ وجه الإيجاز، وسيُعيد هٰذا المعنىٰ مُقرَّرًا فيما يُستقبَل، فبيَّن أنه (يجب علىٰ كل مسلم عاقل بالغ غنيًّا كان أو فقيرًا، شريفٍ أو غير شريف، حر أو مملوك، ذكر أو أنثىٰ، صحيح) أي: قادر، فإن العلم والعمل يتعلَّقان بالقدرة؛ وهي الأَهْلِيَّة المذكورة عند الأصوليين باسم التَّكليف.

وقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما يجب من العلم، فقال: (أوَّل علم معرفة الله سبحانه بصفاته...) إلىٰ آخر ما ذكر، ومجموع ما ذكره المصنِّف هنا، ويُعيده في موضع مُستقبَلٍ -بإذن الله- **أنَّ العلمَ الواجبَ يرجعُ إلىٰ أربعة أصول:**

أولُها: علمُك بالله ﷻ.

وثانِيها: علمُك بما تعبَّدك به من الأمر والنهي.

وثالثُها: علمُك بما أُمِرت أن تتخذه عدوًّا، وهو إبليس ويتبعه مَن دونه مِن الأعداء.

ورابعُها: علمُك بنفسِك الأمَّارةِ بالسوء.

فإذا جمع الإنسان في علمه هٰذه المقاصد الأربعة فقد حصَّل الواجب من العلم عليه.

وهذه الأقسام أصولٌ لما يجب من العلم باعتبار متعلَّقِها، وسيأتي بيان هٰذا المعنىٰ بكلامٍ أجلىٰ فيما يأتي من كلام المصنف، وهذه المعارف العظيمة هي من أشرف ما تعلَّق به علمك، فإن من آكدِ ما ينبغي أن تتعلمه معرفتك بالله ﷻ، فإن معرفة الله بأسمائه وصفاته يُورثُ القلب كمال التألُّه له عَزَّوَجَلَّ حبًّا

وخضوعًا، ويجعل القلب دائرًا في فلك الإقبال عليه، مُتخلِّصًا من التطلع إلىٰ سواه، فإن النفوسَ لا تتشوَّف إلىٰ غير الله في أعمالِها إلا لجهلها بخالقها، فإذا تمكَّنت في القلب معرفة الله علىٰ الوجه الأتم؛ لم يكن في القلب نظر ولا توجُّه إلىٰ غيره ﷻ.

ووراء هٰذه المعرفة معرفة أخرىٰ، وهي معرفتك بنفسك الأمارة بالسوء، فإن الإنسان طُبِع علىٰ نفس أمَّارة بالسوء ظلومة جهولة، كما قال الله ﷷ في نعته: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب ٧٢]، فمن عرَف أحوال النفس، وما يعتريها من التقلُّبات، وما تركُن إليه وتستبد به سهُل عليه قيادُها، ومن جهل حال نفسه وما يعرض لها فإنه أجدر ألا يقدر علىٰ إصلاح نفسه، ولأجل هٰذا عُظِّم باب إصلاح النفوس وملاحظة أحوال القلوب؛ لأن الإنسان لا سبيل له إلىٰ تقويم نفسِه وإصلاحِها إلا بمعرفة حقيقتها، فإن كان جاهلًا بحقيقتها لم يقدر علىٰ سياستها.

فإن النفس مطبُوعة علىٰ خِصالٍ مَن فقهها، قدر علىٰ إصلاحها، ومن جهلها ربما دسَّته في المعاصي والذنوب، ولذلك قال الله ﷷ مبينًا عِظَم هٰذه المعرفة: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[الشمس].

ووراء هاتين المعرفتين معرفة ثالثة تتعلق بمعرفة ما تعبَّدك الله به من الأمر والنهي، فإننا لم نُخلَق سُدىٰ، ولم نُترك هملًا، كما قال الله ﷻ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة ٣٦]، أي: مُهملًا لا يؤمَر ولا يُنهَىٰ كما جاء عن عليٍّ، واختاره الزجَّاج وأبو العباس ابن تيمية الحفيد وغيرُهم، فلابد أن يعرف العبد ما أُمِر به، وما نُهي عنه من عبادة الله، فإنه لأجلها خُلِق كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦].

وبقيت من هٰذه المعارف معرفة رابعة وهي معرفة من أمَرَك الله ﷻ أن تتخذه عدُوًّا، وهو الشيطان، فإن معرفة الشر تُعين علىٰ توقِّيه، كما صحَّ عن حذيفة رضي الله عنه في الصحيح أنه كان يسأل النبي ﷺ عن الشَّر مخافة أن يقع فيه، فمن كانت له معرفة بأنواع الشُّرور ومكائد الأعداء وحبائلهم توقَّاهم، وأعظم هؤلاء الأعداء هو إبليس الذي توعَّد آدم وذريته بأن يجلس لهم بطرق الخير، وأن يصُدَّهم عن الهدىٰ.

ويتبع معرفة إبليس معرفة من دونه من الأعداء؛ لأن الصغير يُلحَق بالكبير، والمتبوع يُحكَم له بالتابع الأصلي، فكما أن الإنسان يستعيذ في صلاته من الدجال، والمراد بذلك الدجال الأكبر الأعور، فإنه ينطوي في استعاذته من الدجال الأكبر الاستعاذة من كل دجال دونه، كما ذكر هٰذا المعنىٰ أبو العباس بن تيمية الحفيد في «منهاج السنة النبوية»، وابن سِعْدِي في «مجموع الفوائد»، فإن الإنسان

يستعيذ من الدجال مذ بُعِث النبي ﷺ، وهذه سُنون متطاوِلَة لم يخرج فيها الدجال، ومنفعة الاستعاذة منه اندراج الاستعاذة من كل دجال دونهم فيها، فإذا قال الإنسان: «وأعوذ بك من الدجال»، فإنه يدخل في ذلك كل دجال دونه، وكذلك معرفة عداوة إبليس للإنسان يندرج فيها معرفة من دونه من الأعداء، من الكفرة والمنافقين وأهل البدع وأهل الفجور والمنكرات.

ومعرفة هٰذه العداوة لا يُراد بها المعرفة التّفصيلية، وإنما المراد بها معرفةٌ إجمالية، فإن المعرفة التفصيلية إنَّما يُحتاج إليها في الخير، وأما معرفة الشر فإنه يُكتفىٰ بمعرفتها تفصيلًا، وهذه قاعدة الشريعة الكلِّية، فإنَّ الشريعة تُفصِّل في المدائح، وتُجمِل في القبائح.

وتأمَّل هٰذا في التفصيل في الصفات الثبوتية لله والإجمال في الصفات السَّلبية.

وتأمله أيضًا في ذكر الأحوال من الأقوال والأفعال المحمودة مُفصَّلة في القرآن والسنة، وإجمال الأقوال والأفعال المذمومة فيهما.

وكذلك الخير والشر، فإن معرفة الشر تكون إجمالًا، ولا يحتاج الإنسان إلىٰ معرفة تفصيلية في الشر؛ لأن التفصيل متوقف علىٰ طلب التكليف بها، ولا تكليف بحمد الله بأبوابِ الشر، وإنما الأمر والنهي متعلق بأبوابِ الخير.

فإذا أُمِرْنا بإقامة الصلاة مثلًا في قوله تعالىٰ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المزمل ٢٠]، كان اللائق بمريد النجاة أن يتعلم تفاصيل الإقامة المطلوبة، وأنواع الصلاة المأمور بها شرعًا من الواجب والنفل، والعلماء رحمهم الله تعالىٰ قد بيَّنوا ذلك، فذكروا أن المكتوب في اليوم والليلة هو خمس صلوات، ثم عقدوا بابًا هو باب صلاة التطوع، وعدَّدوا فيه أنواعًا كثيرة أوصلها ابن عبد الهادي الصغير في كتاب «الغاية» إلىٰ عشرين نوعًا، فهذا هو الذي يُطلَب من الإنسان معرفة تفصيله.

وأما معرفة الشر بأن يعرف الإنسان حبائل المشركين وطرائق الكافرين في الصد عن الدين؛ فهذا أمر غير مطلوب، والاشتغال به مما يُضيِّع العُمُر وقوة النفس، ولما جهِل الناس هٰذا الأصل وَلِعُوا باعتبار طبيعتهم بما يُسمىٰ بالأخبار، فتراهم تبَّاعين لأنواع القنوات والإذاعات يتعرَّفون فيما يزعمون الأخبار وعامّتها من الشرور، ومنهم من يتمادىٰ به الأمر حتىٰ يُفرِغ من قوته ووقته في قراءة مكائد الكافرين، وما يكيدونه للمسلمين، وهذه المعرفة التفصيلية ليست لازمة، وإنّما يشتغل بها بقدر الحاجة مَن بيده أزِمَّة الحكم ليدرأ عن المسلمين شرَّهم، وأما جعل ذلك علمًا مطلوبًا يشتغل به الناس جميعًا حتىٰ آحاد المتعلِّمين وصغار المسلمين؛ فهذا أمر ضار يصد الناس عن معرفة الخير.

وهذا هو الذي آل إليه الأمر، فتجد أحدهم يعرف مما يسمىٰ بالثقافة ما تترسَّمه المدارس الفكرية الكافرة من الشيوعية والرأسماليَّة والعلمانية والليبرالية، وإذا سألته في دين الله ﷻ وجدته جاهلًا فيها.

وعظُم الأمر حتىٰ صار هؤلاء في بعض البلاد هم المُصدَّرون، فيكون المُقتدىٰ به هو اللاهج بهذه الأحوال تحت دعوة أنه له خِبْرَةً بما عليه الناس، ومعرفة بمكايد الأعداء، وهذا علم لأكثر الخلق لا ينفع، وإنما ينفع لمن بيده أزِمَّة الحكم باعتبار الحاجة أيضًا فقط.

أما عموم الخلق فلا ينبغي لهم أن يُفرغوا وسعهم في مثل هذا، فإنه يصدهم عن معرفة التفصيل في الخير، فيجهل الإنسان ما أُمِر به من الخير مع إطلاع واسع علىٰ هٰذه المذاهب المَرْذُولَة من مذاهب الكافرين ومكائد المنافقين، ودُعاة أهل البدعة والضلال.

ومن اقتصرت معرفته بهم علىٰ الوقائع الكونية، وقع في حبائلهم، أما من جهِل أحوالهم الشيطانية مع معرفته بحكم الله فيهم فإنه يكون في منأىٰ منهم، وهذا هو الواقع من قِبَل جماعة منسوبين إلىٰ هٰذه الطريقة، فإنه آل أمرهم إلىٰ الالتقاء في منتصف الطريق مع الكفرة والمنافقين ودُعاة البدعة والضلال والمنكرات تحت دعاوىٰ فارغة، لقاء الحاضرات، وتعايش الناس، وأشباه هٰذه الكلمات التي تحتمل حقًّا وباطلًا، لكن الغالب علىٰ الناس إجراؤها علىٰ الباطل، فإذا عرف الإنسان حكم الله ﷻ كان حِصنًا له من الوقوع في حبائِلِ أولئك، أما الذي يعرف طرائق أولئك ثم يجري معهم علىٰ السياسة، ويظن أنه يُفلِح معهم بذلك فإنه لا يُفلِح أبدًا، فإن الحق لا يقبل الباطل، ولا يلتقي الحق والباطل أبدًا، وكما أن الماء الصافي إذا جُعِل فيه ترابٌ كدَّره وغيَّره فكذلك الصراط المستقيم إذا أُدخِلت عليه شيء من هٰذه الطرائق تحت أي: دعوىٰ، فإنها تُكدِّر علىٰ صاحبها وتُخرِجه من حقيقة أهله علىٰ الحقيقة، وهذا يبيِّن لك عِظم الخطب في جهل الناس بما ينبغي عليهم من العلم وتضييع كثيرٍ منهم أوقاتهم فيما لا ينفعهم أبدًا.

***

باب من فقَّهه الله في الدِّين

أنبأنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله الكِشِّي، قال: أنبأنا سليمان بن داود الشَّاذَكُونِي، قال: أخبرنا عبدالواحد بن زياد، قال حدَّثنا معمر عن الزُّهري عن سعيد بن المُسيَّبِ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يُفقِّه في الدين**».

حدَّثنا أبو بكرٍ جعفرُ بن محمد الفِريَابي، قال: حدَّثنا محمد بن مسعود المَصِّيصِي، قال: حدَّثنا علي بن حُسين بن شَقيق، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك، قال: أخبرنا يونسُ عن الزُهري عن حُميد بن عبد الرَّحمٰن، قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب يقول: «**من يُرد الله به خيرًا يُفقِّه في الدين**».

حدَّثنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد بن صاعد، قال: حدَّثنا محمد بن زُنبور المكي، قال: حدثني إسماعيل بن جعفر، قال: أخبرني عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يُفقِّه في الدِّين».

عقد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ترجمة أولىٰ في هٰذا الكتاب هي (باب من فقَّهه الله في الدِّين)، أي: ما جزاؤه؟ كما تدل عليه الأحاديث الواردة في البابِ، فهو يُريدُ أن يبين فضل الفقْهَ في الدين، وقد أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديثَ: «من يُرد الله به خيرًا يُفقِّه في الدِّين»، مرويًّا عن ثلاثةٍ من الصحابة:

فالحديث الأول من روايةِ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا الحديث أخرَجه أبو يعلىٰ الموصلي في «مُسنَده» وغيرُه، وإسناده ضعيف، والمعروف من حديث الزُّهري إنما هو روايته عن حُميد بن عبد الرَّحمٰن عن مُعاوية، وأما هٰذه الرواية فإنها غلَط، وقد أخطأ في ذلك جماعة من البصريين، كما ذكره الدارقطني في كتاب «العلل»، فحديث أبي هريرة شبه لا شيء، وَهِم فيه بعض الرواة، فغلطوا علىٰ الزُّهري وجعلوه يرويه عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة، وإنما يرويه الزُّهري عن حُميد بن عبد الرَّحمٰن عن معاوية.

وهو الحديث الثاني الذي أسنده المصنف، وهو في «الصحيحين» من هٰذا الوجه من حديث الزُهري عن حُميد بن عبد الرَّحمٰن عن معاوية.

وأما الحديث الثالث فهو من رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد أخرجه الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وغيره من حديث إسماعيل بن جعفر، قال: أخبرني عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن عبد الله بن عباس، وصحَّحه الترمذي، وهو إسنادٌ صحيح غريب، وعبد الله بن سعيد ثقة يروي بهذا الإسناد أحاديث قليلة، من أشهرها ما أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في صدر كتاب «الرّقائق»، قال حدَّثنا المكي بن إبراهيم، قال أخبرنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**».

والحاصل أن هٰذا الحديث عن النبي ﷺ رُوي هاهنا عن ثلاثة صحابة:

فأما حديث معاوية فهو صحيح مُخرَّج في «الصحيحين».

وأما حديث ابن عباس فهو كذلك صحيح ولم يُخرِّجه الشيخان، وإنما رواه الترمذي وغيره.

وأما حديث أبو هريرة فهو غلَطٌ ولا يصح، ويُروىٰ هٰذا الحديث من رواية عبد الله بن مسعود ولا يصح أيضًا.

وقوله ﷺ فيه: «من يُرد الله به خيرًا يُفقِّه في الدين»، فيه بيان أن من علامات إرادة الله العبد بالخير أن يُفقِّهه في الدين، **والفقه** هو الفهمُ، **والدين هو ما أُوحي إلىٰ النبي** ﷺ، والذي أُوحي إليه ﷺ هو القرآن والسنة، فيكون قوله ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يُفقِّه في الدين»، أي يُفقِّهه في الكتاب والسنة، ولهذا فإن أصل العلم هو الكتاب والسنة، وما عدا ذلك من العلوم، فهي إما آلات لفهمها، وهي الضالة المطلوبة، أو أجنبية عنهما، وهي الضارة المغلوبة، كما قاله ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «فتح الباري».

والفقه ها هنا لا يُراد به مجرد الفهم الذي هو الإدراك، وإنما يُراد به الفهم الذي يصحبه عمل.

ولهذا قلنا: إن **الفقه شرعًا هو إدراك خطاب الشرع مع العمل به**، وقد نقل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «مفتاح دار السعادة» إجماع السلف علىٰ أن اسم الفقه لا يقع إلا باجتماع العلم والعمل، فيكون قوله ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يُفقِّه في الدين»، أي يوفقِّه للعلم والعمل بما جاء به النبي ﷺ.

❊❊❊

أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن الحسن بن عبد الجبَّار الصوفي، قال: حدَّثنا محمد بن بكَّار، قال: حدَّثنا عطَّاف بن خالدٍ عن عبد الرَّحمٰن بن حَرْمَلَةَ، قال: حدَّثني سعيد بن المسيَّب، أنه قال: «إن من أفضل العبادة التفقُّه في دين الله، والتفكُّر في خلق الله».

أسند المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هنا بسند حسنٍ عن سعيد بن المسيَّب التابعي الكبير، أنه قال: «إن من أفضل العبادة التفقُّه في دين الله»، أي العلم والعمل بما تضمَّنه الدِّين، فمن أفضل العبادات الفقه في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علمًا وعملًا، وجُمهور أهل العلم علىٰ أن أفضل النَّوافل بعد الفرائض هو طلب العلم، ومن جملة العبادة الفاضلة التفكُّر في خلق الله، والمرادُ بالتَّفكُّر ما يوصِل إلىٰ اليقين ويُثمرُه، فليس هو نظرًا إلىٰ الصُّورة الظاهرة من المخلوقات، وإنَّما استدلالٌ بها علىٰ عظيم تدبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخلْقِه.

❊❊❊

حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الحميد الواسطي، قال: حدَّثنا زُهير بن محمد المرْوَزِي، قال: أخبرنا هارون المعروف، قال: حدَّثنا وكيع عن موسىٰ بن عُبيدَة، عن محمد بن كعب القُرَظِي، قال:

«إذا أراد الله بعبد خيرًا فقَّهه في الدين، وزهَّده في الدنيا، وبصَّره عيوبه، فمِنه أوتيهُنّ؛ فقد أوتي خيرا الدنيا والآخرة».

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أثرًا آخر في هٰذا المعنىٰ، رواه بإسناد ضعيف عن محمد بن كعب القُرظِي، أنه قال: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فقَّهه في الدين»، وهذه الجملة تقدَّمت في الحديث المرفوع، «وزهَّده في الدنيا وبصَّره عيوبَه» أي عيوب نفسه، «فمن أوتيهن فقد أوتي خير الدنيا والآخرة»، وهذا متضمِّنٌ لبعض معاني المعارف المتقدمة التي ذكرها المصنف مما ينبغي أن يشتغل به طالب العلم.

***

قال محمد بن الحُسين: فإن قال قائل: كيف صفة من يُفقِّه الله عَزَّ وَجَلَّ في دينه، حتىٰ يكون ممن أراد الله تعالىٰ به خيرًا؟

قيل: هو المسلم الذي قد علِم أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد تعبَّده بعبادات أوجب عليه يتقرَّب بها إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، كما أمره بها لا كما يريده هو؛ ولكنْ ما أوجب الله علمه عليه، فطَلَبَ العلم ليفْقه ما تعبَّده الله عَزَّ وَجَلَّ به...، وعلمٌ لا يسعه جهل ولا يُعذَر به، وذلك العلمُ ... يجب ... عليها ... عليه فيها، ومثل الزَّكاة وما يجب لله عَزَّ وَجَلَّ عليه فيها، ومثل الصيام ما يجبُ لله عَزَّ وَجَلَّ عليه فيه، ومثل الحجِّ متىٰ يجب وما أوجب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه فيه، وعلم الجهاد متىٰ يجبُ، وإذا وجب ما لله عليه فيه، وعلم المكاسب وما يحلُّ منها وما يحرُم، ليأخذَ الحلال بفقه وعلم، ويترك الحرام بفقهٍ وعلم، وعلم النفقات الواجبات عليه وغير الواجبات، وعلم برّ الوالدين، وعلم صلة الأرحام، والنهي عن قطعها، وعلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلم النكاح إذا أراده حتىٰ يُجرِيَ نكاحه بفِقه، وعلم معاشرة الزوجة وما أوجب الله عَزَّ وَجَلَّ لها عليه من الحق ومما وجب له عليها من الحق، حتىٰ يُجري ذلك كله بفقه وعلم قد تقدَّم.

ثم علم الآداب ومحادثة الإخوان ومجاورة الجيران، ثم علم حفظ جواره عن كل ما حرَّم الله الكريم، ثم علم اللباس ومما هو مباح للرجال ومحظور علىٰ النساء، وما هو مباح للنساء، ومحظور علىٰ الرجال، ومثله الطِّيب والحُلِي، ثم علم المأكول والمشروب، إذ في المأكول مباح وغير مباح، وفي المشروب مباح وغير مباح، ثم علم كيف الشكر لله عَزَّ وَجَلَّ بما أوْلَىٰ من نعمه، ثم طلب الفقه، ثم علم كيف التوبة ممن أذنب ذنبًا، فما هو الواجب عليه لله عَزَّ وَجَلَّ، وكيف التوبة من الذنوب التي بينه وبين المخلوقين.

قال محمد بن الحُسين: هٰذا يطولُ شرحه فمن وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ لطلب علم ما ذكرت، ليعبد الله في جميع ما تقدَّم ذِكرُنا له، وممَّا لم أذكر ممّا يطول به الكتاب، فعَبَد الله عَزَّوَجَلَّ فيه بفقه وعلم فهو ممن أراد الله الكريم به خيرًا، إذ لم يتركه في الجَهل، واعلم أنَّ مَنْ عبَدَ الله عَزَّوَجَلَّ بفقه وعلم نال مراضِي الله عَزَّوَجَلَّ، ويُميط الشُّبَه وينفعُ نفسه في الدنيا والآخرة، ... وإنّهما ... وذلك الذي ذكرته لك هو العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، هٰذا أولًا، ثم صيام ... وقيام الليل والجهاد والحج والصَّدقة الكثيرة ...، وفقّهه ... علمٌ قد تقدَّم، وقد يُدركه ... فليدلُّك علىٰ ما فصَّلته لك، وأنا أذكره ليُرغب في طلب العلم ...، الله عَزَّوَجَلَّ عباده ... منك، والله الموفِّق لذلك.

بعد أن بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما تقدَّم من فضيلة الفقه في الدِّين، أورد سؤالًا هو في قوله: (فإن قال قائل: كيف صِفَة من يُفقِّه الله عَزَّوَجَلَّ في دينه حتىٰ يكون ممن أراد الله تعالىٰ به خيرًا؟)، ثم قال: (قيل هو المسلم الذي قد علِمَ أن الله عَزَّوَجَلَّ قد تعبَّده بعباداتٍ أوجب عليه أن يتقرَّب بها إلىٰ الله، كما أمره بها، لا كما يريد هو، ولكن ما أوجب اللهُ علمه عليه).

والمقصود أنَّ الحقيقَ بهذا النعت هو من طَلَبَ العلم المُقرِّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، لا كما يُريده العبد، فإنَّ إرادة العبد تجري مع هوىٰ نفسه، وأمَّا جريانه مع أمر الله عَزَّوَجَلَّ فهي حقيقةُ تقرُّبه، ولذلك فإنَّ المرء يحضر من الدُّروس ويقرأ من الكتب ما يقربه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما ينبغي أن يتعبَّد الله عَزَّوَجَلَّ به من العلم الذي لا يسعُه جهله، ولا يُعذَر بتركِه.

وقد عدَّد المصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنواعًا من هٰذا العلم، فذكر أفرادًا كثيرة منه، وحصْرُ هٰذه الأفراد متعذِّر، كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب «مفتاح دار السعادة» لاختلاف الناس في الحامل علىٰ ما يجب من العلم، ولأبي عبد الله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هٰذه المسألة المُعضِلة كلامٌ حسنٌ في «مفتاحِ دار السَّعادة»، فإنه رَدّ العلم الواجب إلىٰ ثلاثة أصول:

أحدُها: ما يتعلَّق بالاعتقاد، وجِمَاعُه أصول الإيمان السِّتّة، وما يرجع إليها وما تفرَّع منها.

وثانيها: ما يتعلق بالفعل، وجماعه شرائع الإسلام الظاهرة؛ كالطهارة والصلاة والصوم والحج والزكاة.

وثالثها: ما يتعلق بالتَّرْك، وجِمَاعُه المحرَّمَاتُ الخَمْسُ المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف ٣٣]، الآية، وما اتصل بهذه المحرَّمَات.

وسبق بيان من انطوىٰ عليه قوله في مواضع عدة من شرح «ثلاثة الأصول» والأمالي علىٰ شروحها،

فمن أراد أن يستوفيَ الكلام فإنه يرجع إلىٰ ذلك الموضع، والمقصود أنَّ الإنسان ينبغي أن يشتغل بالعلم المتأكِّدِ عليه ممَّا يُسمَّىٰ بالعلم الواجب، وهذا الواجب يُشار إليه بأصلِ الدِّين؛ لأن أصل الدِّين هو الذي لا يُعذَرُ العبد بالجهلِ فيه، كما ذكره الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرَّحمٰن بن حسن في جواب له، نقله تلميذه سليمان بن سحمان، فأصل الدِّين -كما ذكر- هو ما لا يسع العبد جهله، فلا يسع العبد أن يجهل ما يتأكّد عليه من العلم مما يرجع إلىٰ الأصول الثلاثة، وسيذكر المصنِّف فيما يُستقبل ضابطًا حسنًا، يُميَّز به ما يجب من العلم علىٰ العبد.

ثم ذكر المصنِّف في خاتمة كلامه أنَّ من حصَّل هٰذه العلوم فعبد اللهَ ﷻ بفقهٍ وعلم نال مراضي الله ﷻ وأماط الشُّبه ونفىٰ عن نفسه في الدنيا والآخرة، فمن فضيلة الفقه في الدِّين نيل رضا الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ يُرِيد بمن وفقَّه إلىٰ ذلك الخير، ومن حاز الخير فقد نال رضا الله ﷻ.

ويحصل له به أيضًا إماطة الشُبه، فإنَّ العلم يدفعُ الشُّبَه الواردة علىٰ العبد، كما أن الجهل يُمهِّد الطريق إلىٰ القلب حتىٰ تتمكَّن منه، وأوَّلُ فتنة وقعت من قِبَل الشِّرك، وهي ما حلَّ بقومِ نوح؛ إنما كان سببها ذهاب العلم، فإنَّهم اتّخذوا الصالحين (لما نُسِي العلم)، وفي لفظٍ (لما نُسِخ العلم)، كما جاء ذلك في حديث ابن عباس في كتاب التفسير من «صحيح البخاري»، فلما ذهب العلم تمكَّنت شُبهة الفتنة بهؤلاء في صُوَرهم؛ حتىٰ عبدهم الناس من دون الله ﷻ.

وفي خبر الرجل الذي يعرِضُ للدَّجّال فيُخبر أنه الدجال الذي أخبر عنه النبيُّ ﷺ، والحديث في الصَّحيح دليل علىٰ انتفاع العبد بالعلم، فإنَّ ذلك الرجل مع ما رأىٰ من أمَارات الدَّجّال العظيمة، وأنَّ الدجّال يقتله ويشقُّه نصفين، ثم يُحييه بعد ذلك، إلَّا أنه وُقيَ من تلك الفتنة، والواقي له هو العلم، فإنه قال: أنت الدجّال الذي أخبر عنك رسول الله ﷺ، فبعلمه بنعْتِ الدجال وصفته تهيَّأ له أن يكون في حصن من الشُبَه.

والشُبه العظيمة قديمًا وحديثًا إنما يميِّزُها أهل العلم، وليس المثقفون، فالفكر لا يُدفَع بالفكر، وإنما يُدفَع الفكر بالعلم؛ لأن مدافعة الفكر بالفكر تجرُّ إلىٰ الوقوع في حبائلِه، ولم يتمكن من صد ما حلَّ بالأمة من شُبهة في العصور القديمة والحديثة إلا العلماء، واعتبر هٰذا في الزمن الماضي قريبًا، فإن علماء هٰذه البلاد صنَّفوا في نقد الشيوعية، ونقد القومية كتبًا متعددة، وأما المثقفون فإنهم ألَّفوا «اشتراكية الإسلام» و«اشتراكية أبي ذر الغفاري»؛ لأنهم استَحْلَوا تلك الأفكار، وأرادوا أن يُؤسلموها كما يُقال، فنسبوها إلىٰ الإسلام، وصار هناك من يُنسَب إلىٰ العلم والدين، وهو ينتظم في صفوف الدعوة الشيوعية

أو صفوف الدعوة القومية، فلا يتمكَّن من دفع الشُّبَهِ إلا العالم، كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في نعته في كتاب «مفتاح دار السعادة» إذ قال: «وأما العالم فإنه إذا وفد عليه عسكر الشُّبُهات ردَّها خائبةً خاسرة».

فالعالم المتمكن مهما تكاثرت الشُّبه فإن تلك الشُّبه لا تجد سبيلًا إلىٰ قلبه، وأما من لم ترسخ قدمه، ولم يكمُل علمُه فتجده اليوم علىٰ دينٍ، وغدًا علىٰ دين آخر، وهو يزعُم أن حاله اليوم لا تُناقض حاله أمس؛ لأن هٰذا تغيُّرٌ باعتبار أحوال الناس، وما استجدَّ من وضع القوم، فلكل حال لبوسها، وصدق باعتبار ملاحظة أهل الدنيا، وأما باعتبار ملاحظة حكم الشريعة فإن حكم الشريعة لا يتغير أبدًا، والدِّين الذي مات عليه أبو القاسم ﷺ دينٌ واحد، وإنّما يشرُف العلم ويعظُم فضلُه في أزمنة الفتن؛ لأن العبد يحتاج إليه لئلا ينتظم في صفوفِها، كما سيذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كلامه، وأنت لن تندفع عنك تلك الشُّبه أبدًا إلَّا بعلمٍ قويمٍ وقلبٍ علىٰ صراطٍ مستقيم، فإذا كان علمك صحيحًا وتعلقك بالله عظيمًا؛ فإنك تنجو، وأما إذا كان علمك مشوَّشا، وقلبك ضعيف الصِّلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإن المرء عُرضةٌ للفتن، وقانا الله وإياكم شرورها.

***

حدَّثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن بدينا[1] الدَّقَّاق، قال: حدَّثنا هارون بن عبد الله الحمَّال، ويقال: البزَّاز، قال: حدَّثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا يزيد بن عياض، عن صفوان بن سُليم عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«ما عُبِد الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء أفضلَ من فقهٍ في دينٍ، ولفقيهٌ أشد علىٰ الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد الدين الفقه»**.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في هٰذا الباب حديثًا آخر، وهو حديث أبو هريرة مرفوعًا: «ما عُبِد الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء أفضل من فقه في دينٍ»، الحديث أخرجه الدار قطني في «السنن»، وإسناده ضعيف، ومعنىٰ قوله: «ما عُبِد الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء أفضل من فقهٍ في دين»، يحتمل معنيين اثنين، كما ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»:

أحدهما: أن أعظم العبادة هي الفقه في الدِّين، أي: طلب العلم.

وثانيهما: أن أعظم العبادة ما يكون منها واقعًا عن علمٍ.

والحديث محتملٌ للمعنيين معًا، وقوله بعده «ولفقيه أشد علىٰ الشيطان من ألف عابد»، وإن لم

---

(١) قال الشيخ: أظنها : (بن دينار)، راجعوها.

يصح فإن معناه صحيح، فإن الفقيه أشد علىٰ الشيطان من العُبَّاد؛ لأن الفقيه عالمٌ بحكم الله، وعالم بما تندفع به الشياطين بخلاف العُبَّاد، فإنَّ الشياطين تتلاعب بهم كما رُويت في ذلك أحاديث وآثار، وقوله: «ولكل شيء عماد»، **العماد: هو ما يقوم به الأمر**، «وعماد الدين الفقه» أي أن الأمر الذي يقوم به الدين هو الفقه، وهذا حقٌّ، فإن الدين يبقىٰ ما بقي العلم به، فإذا ذهب العلم به اتَّخذ الناس رؤوسًا جُهَّالا، فسُئِلوا فأفتَوْا فضلُّوا وأضلُّوا كما سيأتي في حديث عبد الله بن عمرو في الصحيح.

❊❊❊

أخبرنا أبو محمد جعفر بن أحمد بن عاصم الدِّمشقي، قال حدَّثنا هشام بن خادم الأزرق، قال: حدَّثنا الوليد بن مسلم عن أبي سعد روح بن جناح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «**فقيه واحد أشد علىٰ الشيطان من ألفِ عابدٍ**».

أخبرنا أبو القاسم إبراهيم بن الهيثمي الناقد، قال: حدَّثنا داود بن رُشيد، قال: حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن أبي سعَد رَوح بن جَنَاح عن مجاهد، قال: بينا نحن وأصحاب ابن عباس جلوس في المسجد، طاووس وسعيد بن جبير وعكرمة، وابن عباس قائم يصلي، إذ وقف علينا رجل فقال: هل من مفتي، فقلنا: سل، قال: إني كلما بُلت تَبِعَهُ ماء دافق، قال: قلنا: الذي يكون منه الولد؟ قال: نعم، قلنا عليك الغسل، قال: فولَّىٰ الرجل وهو يُرجِّع، قال: وعجَّل ابن عباس في صلاته، ثم قال لعكرمة: عليَّ بالرجل، وأقبل علينا فقال: أرأيتم ما أفتيتم به هٰذا الرجل عن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؟، قلنا: لا، فقال: فعن سنة رسول الله ﷺ؟، قلنا: لا، قال: فعن أصحاب رسول الله ﷺ؟، قلنا: لا، قال فعمَّه؟!، قلنا عن رأينا!، قال لذلك يقول رسول الله ﷺ: «**فقيهٌ واحد أشد علىٰ الشيطان من ألف عابد**»، قال: وجاء الرجل فأقبل عليه ابن عباس فقال: أرأيت إذ كان ذاك منك أتجدُ شهوة في قُبُلك؟، قال: لا، قال فهل تجد خَدَرًا في جسمك؟، قال: لا، قال: فإنما هٰذه إِبرَادَةٌ يُجزيك منها الوضوء، قال محمد بن الحُسين: ...عمل ليس فيه شرك... .

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديثًا آخر في هٰذا الباب، هو حديث ابن عباس «فقيه واحد أشد علىٰ الشيطان من ألف عابد»، وساقه بروايتين في الأخرىٰ منهما قصة، وهذا الحديث قد رواه الترمذي وابن ماجه، وإسناده ضعيف جدًّا، والقصة المذكورة في الرِّوَاية الثانية مُنكَرة، فإنها مخالفة لما عُرِف من أحوال السَّلف في كراهية الفتوىٰ، وعدم التقدُّم بين الأكابر، ومثل هٰذا لا يقع قطعًا من هؤلاء الكبار، طاووسٍ وسعيد بن جُبير وعِكرمة رحمهم الله تعالىٰ بحضرة شيخهم؛ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

***

قال محمد بن الحُسين: ... من الأبواب من أمور الدنيا والآخرة إلا بفقهٍ وعلمٍ، ثـم اعلـم -رحمـك الله- أنَّ هٰذا الذي تقدَّم ذكري له، هو فرض علىٰ من ذكرنا؛ لأن «طلب العلم فريضة علـىٰ كـل مسـلم»، فينبغي لكل مسلم عقل عن الله عَزَّوَجَلَّ ألا يشغله شيء عن طلـب الفقـه في جميـع سـعيه لأمـر دنيـاه وأمـر آخرته، وإلا فسد عليه جميع أموره، وكان غيرُ معذورٍ بجهل عبادته لله عَزَّوَجَلَّ.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن زياد الأعرابي، قال: حدَّثنا أبو جعفر الحَضْرمي، قـال: حـدَّثنا هشـام بـن يونس، قال: حدَّثنا المحاربي، عن بكر بن خُنيسٍ، عن ضِرار بن عمرو، عن ابن سيرين قـال: «**إن أقوامًا تركوا العلم ومجالسة العلماء، واتخذوا محاريبَ، فصلُّوا وصاموا حتىٰ ييبَسَ جلد أحـدهم علـىٰ عظـم، وخالفوا السنة فهلكوا، ألا والله الذي لا إله غيره، ما عمل عامل قط علىٰ جهل إلا كان ما يُفسد أكثـر ممـا يصلح**».

ختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هٰذا الباب بهذا الأثر عن محمد بن سيرين، وإسناده ضعيفٌ، ومـا تضـمَّنه من المعنىٰ حق، فإن ترك العلم، والصُّدوفَ عن مجالسة العلماء مع الاشتغال بالعبادة عـن جهـل؛ يوقـع في مخالفة السنة، ومخالفة السنة هي أم الهَلَكة ورأسُهَا، فما يُفسِده أحدهما أكثر مما يُصلحه.

***

بابُ فرضُ طلبِ العلمِ علىٰ المُسلِم

أخبرنا أبو جعفرٍ أحمد بن يحيىٰ الحُلْوَاني، قال: حدَّثنا الحكم بـن موسـىٰ، قـال: حـدَّثنا غسَّـان بـن عُبيد، عن أبي عاتِكَةَ، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلـم فريضـة علـىٰ كـل مسلم**».

أخبرنا أبو يعقوب إسحاق بن أبي حسان الأنْمَاطِي، قال: حـدَّثنا هشـام بـن عمـار الدمشـقي، قـال: حدَّثنا جعفر بن سليمان عن كثير بن شنظير، عن أنس بن سيرين، عن أنس بن مالك قال: قـال رسـول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**».

أخبرنا أبو العباس بن سهم الأشْنَانِي، قال: حدَّثنا محمد بن بكار، قال: حدَّثنا حفـصُ بـن سـليمان، وذكر الإسناد مِثْلَهُ سواء.

حدَّثنا أبو بكر بن أبي داود السجستاني، قال: حدَّثنا جعفر بن مسافر، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن حسان عن سليمان بن قرم، عن ثابت عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**».

قال أبو بكر بن أبي داود: سمعت أبي يقول هذا: أصح حديث روي في «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**».

حدَّثنا أبو سعيد أحمد بن زياد الأعرابي، نا .. .. .. الحسن بن علي بن عفان، و.. .. ..جميعًا قالوا: حدَّثنا الحسن بن عطيَّة عن أبي عاتكة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اطلبوا العلم ولو بالصين**».

وفي حديث جعفر بن عامر «**فإن طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**».

أخبرنا أبو العباس أحمد بن موسىٰ بن زنْجَويَه القطَّان، قال حدَّثنا عثمان بن عبد الله العُثماني[1]، قال حدَّثنا عبد الله بن لهَيعَة عن محمد بن زيد عن أبي سلمة بن عبد الرَّحمٰن عن أبي سعيد الخُدري، قال: قال رسول الله ﷺ : «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مؤمن، يؤمن بالله واليوم الآخر**».

عقد المصنف رحمه الله تعالىٰ ترجمة هي لُب قصده في هٰذا الكتاب، فقال: (باب فرض طلب العلم علىٰ المسلم)، وأورد أولًا حديث أنس بن مالك: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**»، وفي رواية «**اطلبوا العلم ولو بالصين**»، زاد جعفر بن عامر «فإن طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم»، وهذا الحديث يُروىٰ من حديث أنسٍ من وجوهٍ كثيرة، ورُوي من حديث غيره من الصحابة، ولا يصح في هٰذا الباب حديث عند المحققين، وذهب بعض المتأخرين إلىٰ تقوية الحديث بمجموع طرقه، ومثل ذلك بعيد؛ لشدة ضعف طرقه، وعدم خلوِّها من الكذَّابين والوضَّاعين والمجاهيل، فالخبر المروي في ذلك لا يصح، كما ذكره إسحاق بن راهويه وغيره من أهل العلم.

ثم أورد حديثًا آخر عن أبي سعيد الخدري: «طلب العلم فريضة علىٰ كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر»، وهذا الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط، ولا يثبُت هٰذا الحديث أيضًا.

والحديث الأول «طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم»، مع شهرته لم يُخرِّجه أحد من أصحاب الكتب المشهورة إلا ابن ماجه، وهو مما عيب علىٰ ابن ماجه إخراجه؛ لأنه أخرجه بسند ساقط لا يصح،

---

(١) منسوب إلىٰ عثمان، من ذرية عثمان.

والمقصود أن الرواية المتضمنة أن طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم، أنها لا تصح، وزاد بعض المتأخرين «ومسلمة»، وهذه الزيادة لا توجد مُسنَدةً، كما ذكره السخَّاوِي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، وقوله فيها «علىٰ كل مسلم» يُغني عن هٰذه الزيادة؛ لأن الخطاب للذكور يتبعه خطاب للإناث، إلا ما دلَّ الدليل علىٰ عدم دخولهنَّ فيه علىٰ الصحيح عند المحققين من الأصوليين.

***

قال محمد بن الحُسين: فإن قال قائل: فإنَّ العلم كثير لا يدركُه كلُّ أحد، فكيف يُفرَض علىٰ كل مسلم طلبه؟!

قيل له: العلم علىٰ وجوه كثيرة، فمنهم علم لا يسع المسلم جهلَه، وإن كان فقيرًا، صحيحًا أو زمِنًا، حُرًّا أو عبدا، إذا كان عاقلًا بالغًا في كل وقت وفي كل زمان، مما ينبغي أن يكون مصحوبَه في الحضَر والسفر، وعند كل حال، وذلك معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بصفاته، بصحَّة توحيده وإخلاصه فيه، ومعرفة عدوِّه إبليس، ومعرفةُ نفسه الأمَّارة بالسوء، ومعرفة طهارته وصلاته، كيف يؤدِّي خمس صلوات لله عَزَّوَجَلَّ في كل يوم وليلة، وكمال الطهارة والغسل من الجنابة؛ هٰذا ما لا يسع كل مسلم جهله؛ بل فَرْضٌ علىٰ كل من ذكرنا علمه والعمل به، وعلم معرفة ما بُني عليه الإسلام؛ إذ قال النبي ﷺ: «**بُني الإسلام علىٰ خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت علىٰ من استطاع إليه سبيلًا**»، ليس يسع المسلم أن يجهل ذلك، فهٰذا فرض عليه علمه حتىٰ يكون مصحوبَه في كل وقت، حتىٰ إذا رزقه الله الكريم مالًا علِم...، وإذا قرُبَ شهر رمضان علِم كيف يصومه وما يَحِل ...، هكذا إذا قرُب وقت الحج وعلِم أنه ممن... عليه الحج، طلب العلم لأداء ما فرض الله عليه من الحج، لا يسعه أن يُحجَّ بجهلٍ؛ فصار فرضًا، وهكذا إذا أراد الجهاد طلب علم ما يجب عليه من أحكام الجهاد، ولا يسعه أن يجاهد بجهلٍ؛ فصار فرضًا، وهكذا إذا اتَّجر بالأموال، وهو لا يعلم الحلال من المكاسب ولا ما المحرمات منها؛ وجب عليه فرضًا طلب علم ذلك، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لا يتَّجِرُ في سوقنا إلا من فقِه، وإلا أكل الربا**»، وصدق عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إذا كان الإنسان لم يتقدَّم في طلب العلم لما يحل من البيع ويحرُم منه، ولا الصحيح منه ولا الفاسد؛ أكل الربا، وأكل الباطل، وهكذا إذا أراد الدخول في أمرٍ واجبٍ عليه أو مباح له، أجِدُه لم يسعه الدخول فيه حتىٰ يطلب علم ذلك، فصار واجبًا عليه طلب العلم بهذا النَّعت، وبهذه الصِّفة وما يشبهها من أمور الدنيا والآخرة،

ولا يَقدُم عليها إلا بعلم، وإذا لم يكن معه علمٌ ففُرِضَ عليه طلب العلم لذلك العمل الوارد عليه، وهذا يطول شرحُه، والله الموفِّق لمن أحبّ.

قال محمد بن الحُسين: فمن تدبَّر ما رسمتُه لك من أول الكتاب إلىٰ ها هنا؛ علم أنه لا يُنفك أبدًا من طلبه العلم؛ لينتفي عنه الجهلُ بما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليه من فرض عبادته في نفسه وفي أهله وفي ولده، وفي جميع سعيه، فرضًا لازمًا سعىٰ إلىٰ العلماء بإتعاب نفسه، وإنفاق ماله، وتغريبه عن وطنه، ولو إلىٰ الصين، إذا كان لا يوجد العلمُ إلا بالصين.

قال محمد بن الحُسين: ونحن نعلم -والحمد لله- أن العلم موجودٌ في كثير من مدائن المسلمين ممن طلبه وجده، واستغنىٰ عن الخروج إلىٰ الصين، فإن قال قائل: إيش معنىٰ قول النبي ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين»؟...، إن العلم فضل علىٰ الناس بالحجاز وبالعراق وبالشام وباليمن، حتىٰ يحتاج الناس الخروج إلىٰ الصين؟

قيل له: لا، ولكن ... منه للمسلم، ولما عَلِم النبي ﷺ...، عليكم السفر إليه، ولو بالصين حتىٰ لا...، عن الخروج في طلبه مسيرة الميلِ والميلين، والفرسخ والفرسخين، واليوم واليومين؛ لا الأولىٰ والأكبر من ذلك؛ لأنه أولىٰ بهذا وأوجبُ عليهم من كل سفر لمن عقِل.

قال محمد بن الحُسين: وقد رحل جماعة من الصحابة بعضهم إلىٰ بعض في طلب العلم إذا أشكل عليهم، رحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلىٰ مصرَ إلىٰ عُقبةَ بن عامر، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فسأله عنه في يومِ دَخَل، فخبَّره به، فركب أبو أيوب من وقته، ثم رجع إلىٰ المدينة، وقد رحل جماعة من التابعين إلىٰ الشام من العراق، ومن الحجاز، وسألوا عن الحديث والحديثين والأكثر، ولنا فيه باب: (الرُّحْلةُ في طلب العلم)، وهو قد ذكرناه في غير هٰذا الكتاب -إن شاء الله-.

لما أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ الأحاديث المتضمنة فرضَ طلب العلم؛ أورد سؤالًا يرد علىٰ النفوس، فقال: (فإن قال قائل: فإن العلم كثير لا يدركه كل أحد، فكيف يُفرَض علىٰ كل مسلم طلبه؟)، لأن المتبادرَ من قوله: «طلب العلم فريضة علىٰ كلِّ مسلم»، أن (أل) في قوله: «العلم»، استغراقية تشمل جميع أنواع العلم، فبيَّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من الكلام ما يقتضي أن تكون «أل» في قوله: «طلب العلم فريضة علىٰ كلِّ مسلم»، ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، فيكون معنىٰ قوله: «طلبُ العلم فريضة علىٰ كلِّ مسلم»، يُراد به علم مخصوص، وهو العلم الذي لا يسع العبدُ جهلَه مما يلزمه في دينه، فيكون المراد به أصلُ الدِّين من العلم، وليس كلُّ العلم إذ ذلك مما لا سَعَةَ لكل أحد في طلبه، ثم رجع رَحِمَهُ اللَّهُ

تعالىٰ إلىٰ تَعدادِ أنواعٍ من العلم الواجب، مردُّها كما سلف إلىٰ الأصول الثلاثة التي تقدَّم نقلُها عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وأورد في جملةِ ذلك ما يتعلق بالتِّجارة، وذكر فيه عن عمر أنه قال: «لا يتَّجِر في سوقنا إلا من فَقُه، وإلَّا أكل الربا»، وذكر ناشره أنه لم يجده مُسندًا، وهذا الأثر رواه الترمذي بسند حسن في «الجامع» عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**لا يبع في سوقنا إلا من تفقَّه في الدين**»، وهو بمعنىٰ الرواية التي علَّقها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الضابط الموعود به فيما سلف، فقال: (وهكذا إذا أراد الدخول في أمر واجب عليه أو مباح له، أجده لم يسعه الدخول فيه، حتىٰ يطلب علمَ ذلك، فصار واجبًا عليه طلب العلم بهذا النَّعت)، وحاصل هٰذا الضابطِ الذي ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ أن كل شيء أراد الإنسان أن يعمل به، فإنه يجب عليه أن يتقدَّمه علمٌ به، وقد ذكر هٰذا الضابط من بعد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ابن القيم في كتاب «مفتاح دار السعادة»، والقرَافي في «الفروق»، ومحمّد علي بن حُسين المالكي في «تهذيبها»، فالضَّابط الحسن فيما يجب من العلم؛ أنَّ كل شيء أراد العبد أن يعمل به، فإنه يجب عليه أن يتقدَّم علمُه به، فإذا أراد أن يتَّجِر وجب عليه معرفةُ أحكام التجارة، وإذا أراد أن ينكح وجب عليه أن يعلم أحكام النِّكاح، وإذا أراد أن يُطلِّق وجب عليه أن يتعلم أحكام الطَّلاق، وإذا دخل في شيء من هٰذه الأعمال دون علم، فإنَّه آثمٌ ولو أصاب؛ لأنه يكون قد أقدم بجهل، وأدَّىٰ العمل علىٰ وجهٍ لا يتحقَّق الحكمَ الشرعي فيه، **ومنفعة تقدُّم العلم علىٰ العمل رفع الإثم عن الإنسان**، فيرتفع الإثم عن العبد إذا أخطأ، فمن أراد الحج مثلًا فتعلَّم أحكامه، ثم أخطأ فيه فإنه يكون غير آثمٍ في فعله، وأما من دخل في الحج، ثم ارتكب محظورات فإنه آثم وإن كان لها كفَّارات رُتِّبَت عليها، فإن الكفارة لا يمَّحِي بها الإثم في إقدامه علىٰ العمل بعملٍ لا يعلم حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن من أدرك هٰذا المعنىٰ؛ أجهد نفسه في طلب ما يلزمه من العلم، ولو أدَّىٰ به ذلك إلىٰ الرُّحْلَة إلىٰ الصين، ثم بيَّن أن العلم موجود في مدائن المسلمين، وأن هٰذا الحديث المروي: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، أُريد به حث الخلق علىٰ أنه لو بعُد العلم فكان في أقصىٰ الشرق في الصين فينبغي للإنسان أن يخرج إليه، وإن كان هٰذا الحديث لا يصح البتَّة.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ خبر رُحْلَةِ جماعة من الصحابة فمن بعدهم في طلب العلم، والتماسه لهم في الحديث والحديثين، وهذا يدل علىٰ أنَّ العبدَ مأمورٌ بإدراك العلم، ولو لم تكن له سبيل إلا بالرُّحْلَةِ إليه حتىٰ يُحصِّل العلم الذي يلزمه ويتعبَّد لله به.

❊❊❊

قال محمد بن الحُسين فإن قال قائل: فما العلم الذي يُعذَر الإنسان بجهله؟

قيل له: هٰذا الكلام فيه جفَاء، ولكن يُقال له: جوابك أن يُقال لك الاشتغال بطلب علم ما تقدَّم ذِكْرَنا له، وهو واجب عليك.

فإذا ثقُل عليك طلب العلم واجب وسهُل عليك الطلب لعلم غيره، مثل علم أخبار بني إسرائيل وقصص الأنبياء، وأخبار الخلفاء وما شجر بينهم، وأشباه هذا؛ قيل له: يا غافل! لو جهلت هٰذا لما ضرَّك جهلُه، وإذا جهلت ما يجب عليك علمه والعمل به لم تُعذَر بجهلك، وكنت عاصيًا لله عَزَّوَجَلَّ بجهلك ما يجبُ عليك.

ثم يُقال له: إذا أنت ألزمت نفسك طلب هٰذا العلم الواجب اللازم لك في حين الغِنَىٰ والفقر، وحين الصحة والسَّقَمِ، وفي حين الحضر والسفر، لم نأمن بعد ذلك أن تَرِد عليك أمور لم يتقدَّم العلم بها، يلزمك أن تطلب العلم لها مع ورودها عليك، ولو كنت طلبت علمها قبل أن تُبتَلىٰ بها، فإن أفضل ... واجب عليك، فإن قال مثل ماذا؟ قيل له: ... كما يتخلَّف، ...، والحج بعد، فعليك واجب أن تسعىٰ إلىٰ العلماء حتىٰ تعلم كيف تحُج، وأيضًا مثل الطلاق والنكاح، ومن يحل تزويجها ممن يحرُم تزويجها، ومثل الخصومات التي تجري بين الناس في الحقوق إذا جهلت علمَها، وأشباه ذلك مما تُبتَلىٰ به؛ وجب عليك السعي إلىٰ العلماء؛ حتىٰ تتخلص مما بُليت به، بعلم هٰذا وما أشبه، يُعذَر الإنسان بجهله قبل وروده، فإذا ورد عليه لم يُعذَر بجهله، إذا كان إنما شغَلَه عن طلب العلم هذا، حتىٰ ورد عليه اشتغاله بطلب علم تقدَّم ذكرنا له، فليس يَنفَك المؤمن العاقل أبدًا من طلب العلم ما كان في الدنيا.

ثم لم اعلم رحمَك الله أنه من كان مراده طلب العلم الذي لا يسعه جهلُه وحسُنت فيه نيته؛ لم يلبث أن يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ لطلب علم ما ذكرناه، قبل وروده عليه خوفًا أن يُبتلىٰ به، ورُوي عن الحسن أنه قال: «من عمل بما يعْلم وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ لعلم ما لم يعلم».

قال محمد بن الحُسين: فالعاقل لا يستحسن لنفسه أنْ يكون جاهلًا بعلم يزيده شرفًا به عند الله عَزَّوَجَلَّ وعند من عَقِل، ولكنه مشغول بالواجب كيف يعود الله عَزَّوَجَلَّ فيما ألزمه وتزايد في طلب كل علم ينفع ولا يشْبَع.

لما بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما تقدَّم من نعت العلم الواجب أورد سؤالًا يقع في بعض القلوب، فقال: (فيُقال قائل: فما العلم الذي يُعذَر الإنسان بجهله؟)، وبيَّن أن هٰذا الكلام فيه جَفَاء؛ لأن سائله

جعل نَصَبَه واهتمامَه ما لا يتعلق به عملُه، فهو يسأل عن علم يُعذَر الإنسان بجهله، وكان ينبغي أن يسأل عن العلم الذي يجب علىٰ الإنسان، أي: ما لا يُعذَر الإنسان فيه، فالسؤال عما لا يُعذَر الإنسان بجهله أعظم من السؤال عما يُعذَر الإنسان بجهلِه، فأنت مأمورٌ في إخراج نفسك من عُهْدَة التكليف بامتثال ما أوجبه الله ﷻ عليك.

ثم بيَّن أنَّ من ثقُل عليه العلم الواجب، وسهُل عليه ما وراء ذلك؛ كأخبار بني إسرائيل، وقصص الأنبياء، وأخبار الخلفاء والأمم، وعابه علىٰ ذلك؛ لأن الجهل بمثلِ هٰذا لا يضر، وقد روىٰ الخطيبُ البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كتاب «الجامع» أن رجلًا قال للإمام أحمد: إني أريد أن أجمع مسند الأنبياء، فقال: اشتغل بجمع مسند نبيك ﷺ، فالاشتغال بجمع الأخبار المروية عن الأنبياء السابقين؛ كنوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام، أولىٰ منه أن يشتغل الإنسان بجمع المأثور عن النبي ﷺ لتعلُّق العلم والعمل به.

ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن من ألزم نفسه طلب العلم الواجب عليه في كلِّ حينٍ أُعينَ علىٰ ما وراء ذلك إذا ابتُلي به، فالإنسانُ الذي يشتغل بما يُعينه علىٰ امتثال أمر الله يوفَّق لما وراءه، وأما من يشتغل بالبَطَالات فإنه لا يُفتَح له أبواب الفهم والإدراك، فإذا اشتغل الإنسان بالعلم الواجب النَّافع؛ هيَّأ الله عَزَّوَجَلَّ له العلمَ لما وراء ذلك ممَّا يعرُض له هٰذا الابتلاء بشيء من مسائل الطّلاق أو النكاح أو الخصومات، وهذا يدلّ علىٰ شرف الاشتغال بالمهمّات، وأنها توصل إلىٰ ما ينفع، وأمّا الاشتغال بالفضول فإنه لا ينفعُ الإنسان.

وكان أبو عُبيد القَاسمُ بن سلَّام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يعجَبُ ممن يشتغل بالفضول ويترك الأصول.

ووجه العجبِ أن الإنسان ينبغي له أن ينفق قوتَه ووقتَه فيما يرجع عليه بالنفع، وهي الأصول، وأما الفضول الزائدة فلا نفع فيها، كما أن من بركة الأصول أنها تُعبِّدُ الطريق إلىٰ ما وراءها، فمن تعلَّم المهمات وعمل بها؛ فتح الله له أبوابَ الفهم، كما رُوي عن الحسن وغيرِه من السلف أنهم كانوا يقولون: «من عمل بما يعلم وفقَّه الله عَزَّوَجَلَّ لعلم ما لم يعلم»، فالذي يطلبُ المهمَّات، ثم يعمل بها؛ يفتح الله عَزَّوَجَلَّ له أبواب الفهم، ولما عَقَل أهل العلم هٰذا المعنىٰ صنَّفُوا المصنّفات المعروفة بالمتون، مختصرات ومتوسِّطَات ومُطوَّلات لجمعها أصول العلم، وإنّ من بركة هٰذه الأصول أنّها تعين الإنسان علىٰ كمال علمه، وإن لم يُطالع سائرَ كُتُبِ الفن؛ لأن من اشتغل بالمُعتمَد فُتِح له باب الفهم ببركته.

ثم ذكر أنّ العاقل لا ينبغي له أن يكون جاهلًا بعلم يزيده شرفًا؛ بل يشتغل بالعِلم المُشرِّف له مما

أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، فإن الإنسان لا يزال يطلب العلم النافع، ولا يشبع منه، ومن اشتغل بغيره انقطعَ دونه.

❊❊❊

باب فضل طلب العلم لله عَزَّوَجَلَّ

حدَّثنا أبو بكر قاسم بن زكريا المُطَرِّز، قال: حدَّثنا محمد بن صبَّاح الجُرْجَانِي، قال: حدَّثنا جرير بن عبد الحميد، عن الأعمَشِ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سهَّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له طريقًا إلىٰ الجنة**».

حدَّثنا أبو جعفر أحمد بن خالد البَرْدَعي في مسجد الحرام، قال: حدَّثنا علي بن سهم الرَّمْلِي، عن يحيىٰ بن عيسىٰ الرَّمْلِي، عن الأعمشِ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهَّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له طريقًا إلىٰ الجنة**».

حدَّثنا أبو بكر عبدُ الله بن محمد بن عبد الحميد الواسطي، قال: حدَّثنا زُهير بن محمد المَرْوَزِي، قال: حدَّثنا عبد الرزَّاق، قال: حدَّثنا مَعمَر، عن عاصم بن أبي النَّجُودِ، عن زِر بن حُبيش، قال: أتيت صفوان بن عسَّال المُرادي، فقال: ما جاء بك؟ فقلت: جئت ابتغاء العلم، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يخرج من بيته ليطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا لما يصنع».

وحدَّثنا أبو بكر أيضًا، قال: حدَّثنا زُهير بن محمد، قال: حدَّثنا عبد الله بن يحيىٰ، عن شَرِيك، عن عاصم بن أبي النَّجود، عن زِر، قال: خرجت أريد صفوان بن عسَّال المرادي لأسأله، فقال له: ألا أُخبرك بما سمعت من رسول الله ﷺ في طلب العلم قبل أن أحَدِّثك؟، قلت: بلىٰ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة لتخفِضُ أو لتضع أجنحتها لطالب العلم سُرورًا بما يفعل».

حدَّثنا عبد الله بن عباس الطَّيَالِسِي، قال: حدَّثنا نصر بن علي، قال: حدَّثنا خالد بن يزيد، قال: حدَّثنا أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيعِ، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يَرجِع».

حدَّثنا أبو العباس أحمد بن موسىٰ بن زنجويه، قال: حدَّثنا هشام بن عمار الدمشقي، قال: حدَّثنا حفص بن عمر، عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما سلك عبد طريقًا يقتبس فيه علمًا إلا سلك به طريقًا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضًا عنه، وإنه يستغفر للعالِم من في السماء ومن في الأرض، حتىٰ الحيتانِ في البحر، وفضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وإنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم**

يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكنهم ورَّثوا العلم، فمن أخذ به، فقد أخذ بحظ وافر».

حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن أبي داود السِّجسْتَاني، قال: حدَّثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السَّرْح المصري، قال: حدَّثنا بِشرٍ بن بكر، عن الأوزاعي، عن عبدِ السلامِ بن سُليم، عن يزيد بن سَمُرة، عن كثير بن قيس، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليستغفرُ للعلماء كلُّ شيء حتىٰ الحيتان في جوف البحر، فإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب، إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا دِرْهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**».

عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ترجمةً ثالثة هي (بابُ فضل طلب العلم لله عَزَّوَجَلَّ)، فإنه لما بيَّن فرض العلم؛ استحسنَ أن يُتبِعه بما يدلُّ علىٰ فضل طلب العلم، ثم قيَّد حصول هٰذه الفضيلة بكوْنِ طلبه لله عَزَّوَجَلَّ لا لغيره، كما سيُنبِّه عليه المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كلام له يأتي فيه محلِّه، واستفتح الأحاديث المذكورة في هٰذا الباب بحديث أبي هريرة: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهَّل الله له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طريقًا إلىٰ الجنة**»، ورواه من طريقين عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، والحديث في «صحيح مسلم» بهذا الإسناد.

وقد ذكر الدارقُطني وغيره أن الأعمش دلَّس هٰذا الحديث فلم يسمعه من أبي صالح، وإنما رواه عن رجل عن أبي صالح عن أبي هريرة، والأمر كذلك، وهو من الأحاديث القليلة التي دلَّسها الأعمش، إلا أن هٰذه الجملة صحَّت عن النبي ﷺ، وكفىٰ من فضل العلم أن يكون طريقًا موصلًا إلىٰ الجنة، كما ذكر ابن القيم في «مفتاح دار السعادة».

ثم أتبعه بحديث صفوان بن عسَّال، ورواه من طريقين عن عاصم عن زِرٍّ عن صفوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ما من رجل يخرج من بيته ليطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا لما يصنع**»، وهو عند الترمذي وغيره، وإسناده حسن، وفيه من فضيلة العلم أنَّ الملائكة تضع أجنحتها حقيقةً لطالب العلم رضًا بما يصنعه لمحبّتها لذلك، فإنَّ الملائكة تحبُّ الأعمال الصالحة وأهلها.

ثم ذكر حديث أنس بن مالك: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع**»، وهو عند التِّرمذي، وإسناده ضعيف، وفيه بيان أنَّ الخارج في طلب العلم فهو في سبيل الله، أي: خارجٌ لأجل أمر عظيم يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو في طريق الله الذي رَضِيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم ختم هٰذه الأحاديث بحديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه وغيرهما، وهو حديث حسن يُروىٰ من طريقين يُقوِّي أحدُهما الآخر، وقد حسَّنه حمزة الكِنَاني والسَّخاوي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ

في «المقاصد الحسنة»، وهو حديث مشتمل علىٰ فضائل متعددة لطلب العلم:

منها أنَّ من سلك طريقًا يقتبس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة.

ومنها أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا عنه.

ومنها أن العالم يستغفر له من في السماء ومن في الأرض حتىٰ الحيتان في البحر.

وإنما عظُم استغفار الخلق له؛ لأنَّ ما يصل من الإحسانِ إليهم موقوفٌ علىٰ تعليم العالم للناس، كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «مفتاح دار السعادة»، فالبهائم العَجْمَاء والحيوانات التي لا تعقل؛ تستغفر للعالم، لأن ما يجري لها من الإحسان إنما وصل إليها من الناس بتعليم العلماء.

وذكر من فضل العلم أن العالم يفضُل علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، ومنها أن العلماءَ هم ورثة الأنبياء، فميراث النُّبوة هو العلم، والقائمون علىٰ هٰذا الميراث هم العلماء، فالأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكنَّهم ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر، أي أخذ بنصيب عظيم.

وأعظِم بهذا الشرف أن يكون العلم هو ميراث النُّبوة، فإذا خرج الناسُ يطلبون مواريث الخلق فإن أعظم الغانمين من يشتغل بالميراث الأعظم، وهو ميراث الأنبياء، وحقيقته العلم كما في حديث أبي الدرداء هذا، ولابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ شرح ماتعٌ لهذا الحديث في رسالة مُفردة، وتقدَّم الكلام عليه غير مرةٍ.

❊❊❊

قال محمد بن الحُسين: فإن قال قائل: هٰذا الفضل كلُّه لكلِّ مَن طلَب العلم؟

قيل: ما ذُكِر من فضله إنما هو لمن حسُنت نيَّته في طلب علم.

فإن قال: وما حسن النيَّة فيه؟

قيل: من خرج ليتعلَّم من العلم ما ينتفي به عنه الجهل بما لله عَزَّوَجَلَّ عليه من حقِّ عبادته، حتىٰ يعبد الله الكريم بعلم، فطلب من العلم ما ينفعه به في دينه علىٰ حسب ما تقدَّم ذِكرنا له، وكلُّها ورد عليها أمر من أمر الدنيا والآخرة مما قد أشكل عليه، يريد السلامة منه، فلم يكن عندَه فيه علم سعىٰ إلىٰ العلماء فيه ليتعلَّمه لله عَزَّوَجَلَّ، يطلب ذلك سلامة دينه، فأي طريق سلكَ هٰذا الطالب قصير أو طويل، كان داخلًا في معنىٰ ما ذكرناه من الفضل لطلبة العلم، وأُعين عليه إن شاء الله، واعلم أنَّه من كان طلب من العلم ما

ينتفع به فأقلُّ قليل من العلم ما ينفعه إن شاء الله.

حدَّثنا أبو القاسم عبد الله بن محمّد بن عبد العزيز البغوي قال: حدَّثنا علي بن الجعد، قال: حدَّثنا شعبة، عن عمرو بن مُرة، قال: سمعت أبا البختري يُحدِّث عن رجل من بني عبس، قال: صحبت سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأتىٰ علىٰ دِجْلَةٍ، فقال: يا أخا بني عبْسٍ انزل فاشرب، قال: فنزَلت فشربت، ثم قال لي: يا أخا بني عبْسٍ انزل فاشرب، قال: فنزلت فشربت، فقال: ما نقص شربُك من ماء دجلة؟، فقلت: ما عسىٰ أن ينقص، قال: كذلك العلم، فعليك بما ينفعك.

حدَّثنا أبو محمد بن يحيىٰ بن محمد الصاعدي، قال: حدَّثني الحُسين بن حسن المرْوَزِي، قال: حدَّثنا عبد الله بن المبارك، قال: أخبرنا مِسْعَر، قال: سمعت عَمرو بن مُرة يُحدِّث عن أبي البَخْتَري، قال: صحب سلمان رجل من بني عبس، قال: فشرب شربة من دِجْلَة، فقال لَهُ سلمان: عُد فاشرب، قال: قد رَويت قال: أتَرىٰ شربتُك هٰذه نقصت منها شيئًا؟، قال: وما تنقص منها شربة شربتها؟!، قال: كذلك العلم، لا يفنىٰ فاتبع، أو قال فابتغي من العلم ما ينفعك.

قال أبو بكر محمد بن الحُسين: ... حدَّثنا أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ الحُلْوَاني، قال: حدَّثنا الحكم بن موسىٰ، قال: حدَّثنا ضَمْرَة، عن عبد الله بن شوذَبٍ، عن مطرٍ الورَّاق في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، قال: هل من طالب علم يُعان عليه؟.

قال محمد بن الحُسين: وقال بعض العلماء أَولىٰ العلم بك، ما لا يصلح العمل إلا به، وأوجب العلمِ عليك؛ العمل به، وأنفع العلم لك ما دلَّ علىٰ صلاح قلبك وفساده، وأحمدُ العلمِ عاقبةً؛ ما تعجَّل نفعه في العاجلة، فلا تشتغلن بعلم لا يضرك جهله، ولا تغفلنَّ عن علم يزيد في جهلك بتركه، فلرُبَّ علمٍ يُريح البدن، ويغزر منه الثواب، ورُبَّ علم يُتعِبُ البدن، ويكثرُ منه العقاب.

ثم اعلم -رحمك الله- أنَّ من طلاب العلم أناسٌ لهم عقولٌ مؤيَّدَة وآداب جميلة وفهومٌ حسنة، يحبون أن يُحيوا سُنن رسول الله ﷺ وسُنن أصحابه، ويُميتوا البدع، ويُحبون جمع العلم وكثرتِه ليحفظوا به علىٰ المسلمين شريعَتهم، كراهية أن يضيع العلم، فإذا بلغهم أنَّ شيخًا من الشيوخ في باب بلدٍ شاسعٍ معه علمٌ، وحفظٍ للسنن، ومعرفةً بها؛ رحلوا إليه رغبةً منهم للسَّماع من مثل ذلك الشيخ، إذا كان ثقة مأمونًا صادقًا عارفًا بما يُحدِّث، ومثل هٰذا يرغبُ فيه أهل الحديث ليأخذوا عن مثله العلم بنيِّة جميلة وعقل ومعرفة بالعلم، وبمن يؤخذ عنه، وبمن لا يُؤخذُ عنه؛ فرَحلوا إليه، فهذه صفة من تضع له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع، وهو ممن هو في سبيل الله حتىٰ يرجع، وممن تستغفر له الملائكة

والحيتان في البحر، وممن قد سلك طريقًا إلىٰ الجنة، وسينفع الله تعالىٰ به جميع خلقه.

قال محمد بن الحُسين: اعلم -رحمك الله- أن هٰذا الضرب في الناس قليلٌ جدًّا، وليس يضرُّهم ذلك، وهم عند الله كثير؛ هٰذا الأجر ... كلُّه لكل من طلب العلم، فأما من طلب العلم هٰذا للمُكاثرة في الدنيا لا للآخرة، والرياء والسمعة ... ممن طلب العلم.

حدَّثنا أبو بكر جعفر بن محمد الفِرْيَابي، قال: حدَّثنا محمد بن حسن البَلْخِي، قال: حدَّثنا ابن المبارك، قال: سفيان، قال: يُقال: «تعوَّذوا بالله من فتنةِ العالم الجاهل، ومن فتنةِ العالم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

أخبرنا عبد الله بن صالح البخاري، قال: حدَّثنا الحُسين بن علي الحُلْواني، قال: حدَّثنا سعيد بن أبي مريم، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن أيوب، عن ابن جريجٍ، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تتعلموا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولا لتخيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»**.

قال محمد بن الحُسين: فمن كان مراده في طلب العلم في هٰذه الأحوال وأشباههما من أمور الدنيا وما أراد منها ليس لله عَزَّوَجَلَّ فيها شيء، كيف بحقه ثواب ما تقدَّم ذكرنا له، من فضلٍ من طلب العلم؟!، الله المستعان!، ما أشدَّ فتنة مَن طلب العلم، وما أعزَّ من طلبه لله عَزَّوَجَلَّ، وما منهما أحد إلا وأخلاقه تدل علىٰ صحة طلبه لله عَزَّوَجَلَّ، أو علىٰ فساد طلبِه الحقَّ، علىٰ أهل العقل والعلم صِحَّةً ذا من فساد ذا، أعاذنا الله وإياكم من علم لا ينفع.

لما بيَّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما تقدَّم من أحاديث في فضل العلم، أبان أنَّ هٰذا الفضل لا يكون لكل أحد، وإنما يكون لمن حسُنت نيته في طلب العلم، ثم بيَّن أنَّ حُسن النية مردُّه إلىٰ أن يخرج ليتعلم من العلم ما ينتفي به عنه الجهل بما لله عَزَّوَجَلَّ عليه من حق عبادته.

وسلف أن ذكرتُ لكم أن نيَّة العلم التي ترجع إليها أصولُها، فمن حقَّقها حسُنت نيته في العلم عمادُها أربعة أمور:

أولُها: أن ينويَ رفع الجهل عن نفسه.

وثانيها: أن ينوي رفع الجهل عن غيره من الخلق.

وثالثُها: أن ينوي العملَ بالعلمِ.

ورابعُها: أن ينوي حفظ العلم وصيانتَه من الضَّياع.

فمن جمع هؤلاء الأربع جمع حسن النية فيه، وأشرت إلىٰ هٰذا المعنىٰ بقولي:

نيَّـةٌ للعلـم رفـع الجهـل عَـمّ　　عـن نفسـه، فغيـره مـن النسـم
وبعـده التحصـين للعلـوم مِـن　　ضـياعِها وعمـلٌ بـه زُكِـن

فإذا جمع طالب العلم ذلك جُمِع له حسن النية، فأصاب الفضل الوارد في طلب العلم، ومن حسُنت نيته في طلب العلم فأقل القليل من العلم ينفعُه.

وأورد المصنف في تصديق ذلك الأثر الواردَ عن الرجل من بني عَبْس مع سلمان رضي الله عنه، وأسنده من طريقين لا يصحَّان، لكن ما تضمَّنه صحيح، فإن الإنسان ينبغي له أن يبتغيَ من العلم وأن يتبعَ منه ما ينفعُه.

ثم أسند ما صحَّ عن مطرٍ الورَّاق عند الدَّارمي وغيره، أنه قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر ١٧]، قال: (هل من طالب علم يُعان عليه)؛ لأن أصل العلوم كلها هو القرآن، فإذا كان أصل العلم مُيسَّرًا فإن ما وراءه يُيسَّر أيضًا، لكن الفائز بهذا من حسُنت نيته، فيُيسِّر الله عز وجل له العلم، والناس يظنون أنهم يُدركون العلم بجودة أذهانِهم وحسن فهمهِم وقوَّة حفظهم، وليست هٰذه إلا آلات إن شاء الله أمضاها، وإن شاء الله سلبها القُدَرَ المُستكِّنة فيها، وإنما يُحصِّل الإنسان العلمَ علىٰ قدر نيَّته، كما روىٰ ابن عساكر وغيره بسند فيه ضعف أن ابن عباس كان يقول: «إنما يحفظ الرجل علىٰ قدر نيته»، فإذا كانت نية المرء صحيحة قوي حفظه وجاد علمه، والعبد مأمورٌ بتعاهد نيته للعلم أكثر من الأمر بتعاهدها في الحفظ والفهم وحضور الدروس؛ لأنه إذا استقامت لك النية فُتِح لك باب الفهم والعلم، وإذا فسدت نيتك فلا تظننَّ أنك بفهمك وحفظك تُدرك العلم؛ بل تتمادىٰ فيه مدة ثم يُحال بينك وبينه.

ثم ذكر ما جاء عن بعض العلماءِ أنَّ (أولىٰ العلم بك، ما لا يصلحُ العمل إلا به، وأوجب العلم عليك العمل به)، فأولىٰ ما ينبغي أن يعتني به الإنسان من العلم ما قادَه إلىٰ العمل، فإذا علِمه فليبادر إلىٰ العمَلِ به.

ثم ذكر أنَّ ممَّن عقل هٰذه النية الحسنة طائفة من طلاب العلم، لهم عقول مؤيَّدة وآداب جميلة، وفُهُومٌ حسنة يحبون أن يُحيُوا سُنن رسول الله ﷺ وسنن أصحابه ويُميتوا البِدَع، وهم المشتغلون بنقل الحديث وحمله، فإنهم يخرجون في طلب العلم ويبتغونه، رجاء حفظِ الدِّينِ علىٰ النَّاس، وهذا من أنواع النية في العلم كما تقدَّم، وهؤلاء كما ذكر المصنِّف رحمه الله تعالىٰ قليل، ومن طلب العلم لغير هٰذا كمن

يطلبه للمكاثَرة في الدُّنيا أو للرياء والسمعة، أو للمنصب أو للرياسة، أو للمقام أو للجاه، فإنَّ ذلك كله من النيات السيئة، وهو مكرٌ سيئ يحيق بصاحبه.

وذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما ثبَتَ عن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنه كان يقول: «تعوَّذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، ومن فتنة العالم الفاجر، فإن فتنتهما لكلِّ مفتون»، والعالم الفاجر هو الذي يخرج بنيته أو بعمله عما يأمُرُه به العلم، فإذا كان منسوبًا إلىٰ العلم وله نية فاسدة أو عمل فاسد فإنه عالم فاجر، وهو فتنة لكل مفتون، وهذا كثيرٌ في زماننا.

ثم أسند الحديث المرويَّ عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تتعلموا العلم لتُباهوا به العلماء**»؛ أي تفاخروا به العلماء، «**ولا لتماروا به السفهاء**»؛ أي لتناقدوهم وتردوا عليهم، «**ولا لتخيَّروا به المجالس**»؛ أي تتقدم ما تختارون من مواقع الجلوس، فمن فعل ذلك، فالنار النار، وهذا وعيد عليه بالنار إذا وقع منه ذلك، وهذا الحديث لا يصحّ، لكنَّ من كان مرادُه في طلب العلم هٰذه الأحوال من أمور الدنيا فإنه آثم؛ لأن العلم عبادة، وإذا خرج بها عمَّا أمر الله عَزَّوَجَلَّ وقعت المحذور، واستوجب العقاب.

❊❊❊

بابُ فضلِ مجالسةِ العُلَمَاء

حدَّثنا أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ الحُلواني، قال: حدَّثنا أحمد بن عبد الله بن يُونس، قال: حدَّثنا أبو بكرٍ بن عَيَّاش، عن أبي المُهَلَّب، عن عُبيد الله بن زحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني عليك بمجالسة العلماء، واستمع كلام الحُكماء، إن الله تعالىٰ يُحيي القلب الميت بنورِ الحكمة، كما يُحيي الأرض الميِّتة بوابل المطر**».

حدَّثنا أبو محمد بن يحيىٰ بن صاعد، قال: حدَّثنا الحُسين بن الحسن المَرْوَزِي، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك، قال حدَّثنا عُبيد الله بن عمر، عن عبد الوهاب بن بختٍ المكي، قال: قال لقمان لابنه: «يا بني جالس العلماء، وزاحمْهُم بِرُكَبِكَ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُحيي القلوب بنور الحكمة، كما يُحيي الأرض بوابل السماء».

...ابن أبي عُمَر العدني، يعني محمدًا، قال: أخبرنا أبو عبد الله الـ...، قال: حدَّثنا عبد الرَّحمٰن بن زياد عن أنعم الإفريقي، قال: حدَّثنا عبد الرَّحمٰن بن رافع، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مرَّ بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله عَزَّوَجَلَّ ويرغبون إليه، والآخر

يتعلمون الفقه ويعلِّمونه، فقال: «كل المجلسين علىٰ خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أمَّا هؤلاء فيدعون الله ﷻ أو يرغبون إليه، فإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويُعلِّمون الجاهل، فهم أفضل، وإنما بُعِثت معلمًا، ثم جلس إليهم».

حدَّثنا ابن صاعد، قال: حدثني حُسين بن حسن المَرْوَزِي، قال: حدَّثنا ابن المبارك، قال: حدَّثنا عبد الرَّحمٰن بن زياد بن أَنْعُم، عن عبد الرَّحمٰن بن الغافل، عن عبد الله بن عمرو، قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فرأىٰ مجلسين؛ أحد المجلسين يدعون الله ﷻ ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه، فقال رسول الله ﷺ: «**كل المجلسين علىٰ خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء يتعلمون ويُعلمون الجاهل، وإنما بُعِثت معلمًا؛ هؤلاء أفضل، فجلس معهم**».

حدَّثنا أبو الفضل جعفر بن محمد الصَّنْدَلِي، قال: حدَّثنا أحمد بن منصور الرمادي، وعن عبد الله بن صالح، قال: حدَّثني معاوية بن صالح، عن أبي عُبيدٍ، عن ابن سيرين، قال: دخلت مسجد البصرة والأسود بن سَرِيع يقُص علىٰ الناس، وقد اجتمع أهل المسجد، وحلْقَةٌ من أهل الفقه جلوسٌ في ناحية أخرىٰ يتحدثون بالفقه ويتذاكروه، قال: فركعت بين المُذَكِّر والحَلْقة، فلما فرغت من السجدة قلت: لو أتيت الأسود فجلست إليه، عسىٰ أن تصيبهم إجابة ورحمة، فتُصيبني معهم، ثم قلت: لو أتيت الحلقة فتفقَّهت معهم لعلي أسمع معهم كلمة لم أسمعها...، فلم أزل أخيِّر نفسي ذلك وأشاورُها حتىٰ جاوزتهم، فلم أقعد إلىٰ واحد منهم فانصرفت، فأتاني آتٍ في المنام، فقال: أنت الذي ركعت بين المُذكِّر والحلقة التي يُذْكَر فيها الفقه؟ فقلت، نعم، قال: أما إنك لو أتيت الحلقة التي يُذكَر فيها الفقه؛ لوجدت جبريل معهم في حلْقة الفقه.

حدَّثنا أبو الفضل الصَّندليُّ أيضًا، قال: حدَّثنا أبو بكر بن زنجويه، قال: حدَّثنا معاوية بن صالح، قال: حدَّثنا ابن وهب، قال: أخبرني مسلَمَة بن علي، عن عبد الرَّحمٰن بن يزيد، عن ابن شهاب، عن أبي إدريس أنه سمع أبي الدرداء يقول: «من فقه الرجل مجلِسُه ومدخلُه ومخرجُه مع أهل الفقه».

أخبرنا الفريابي، قال: حدَّثني الوليد بن عُتبة الدمشقي، قال: حدَّثنا عمر بن عبد الواحد عن الأوزاعي، عن الحسن بن الحسن، عن عمرو بن عبد الله، قال: جلسنا إلىٰ أم الدرداء فقلت لها: لعلنا أمْلَيْنَاكِي، فقالت: أمليتموني؟!، لقد طلبت العِبادة في كل شيء، فما أصبت لنفسي شيئًا أشفىٰ من مجالسة العلماء ومُذاكرَتِهم.

قال محمد بن الحُسين: فإن قال قائل: فإذا نحنُ دخلنا مسجد الجامع، فإنَّا نشاهد فيه خلقًا كثيرًا قد

اجتمعوا، وكلهم يُشارُ إليهم أنَّهم علماء، فإلىٰ أي الناس تأمرنا أن نجلس إليه منهم؟، قيل له: إن كان كفاهم ومعرفة وحزم، فانظر كل من علمت أنه يُعلم المسلمين علمًا يجب عليهم علمه والعمل به، ويُفقِّههم به، ويحثُّهم فيه علىٰ الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وعلم الحلال والحرام من المكاسب، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم ،وعلم بر الوالدين وصلة الأرحام، وعلم سياسة الرجل لأهله وولده، وعلمِ حفظ الجوارح، وعلم الآداب في الأكل والمَشرب، واللباس، وعلم المؤاخاة، وعلم الشُّكر لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه، والتحذير من الذنوب، والترغيب في الأخلاق الشريفة، وما أشبه ذلك؛ فالزمه، وَالْهُ عمَّا سواهُ، واعلم أنَّ هٰذا هو العلم الذي أُمِرت بتعليمه، فاتبَع مجالس العلماء، من يُجري في مجلسه مثلُ هذا، مما إذا كان فيه علمت أنك قد استفدت علمًا أنت إليه فقير، فاعلم أنك مِن الله عَزَّوَجَلَّ، ويُقال له: أَوفَقُ لك ... الله عَزَّوَجَلَّ عليك من علم كنت عنه ...، عليك منفعة مُجَالستك مثل هٰذا العالم ....، أكره علىٰ استعمال ما قد علمت ...، عن الأخلاق الدينية واستعن بالله الكريم علىٰ أمرك.

أخبرنا أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ الحُلواني، قال: حدَّثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، قال: حدَّثنا علي بن هاشم بن البَريد، عن مباركَ بن حسَّان، عن عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قيل: يا رسول الله؛ أي الجُلسَاء خير؟ قال: «من ذكَّركم بالله ورؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكَّركم بالآخرة عملُه».

حدَّثنا أبو بكر محمد بن الحُسين البلَخي بن شهرياز، قال: حدَّثنا زُهير بن محمد المَرْوَزِي، قال: حدَّثنا عُبيد الله بن موسىٰ، عن المبارك بن حسَّان، عن عطاء، عن ابن عباس؛ قيل: يا رسول الله؛ أي جُلسائنا أفضل؟ قال: «**من ذكَّركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقُه، ورغَّبكم في الآخرة عمله**».

قال محمّد بن الحُسين: هٰذا يَحتملُ في مجالسة العلماء أن يكونَ يطلبُ من المَجالسِ مَن هٰذه صفته، ويُحتمَل ألا يجالس من الأصحاب والإخوان إلا من يستفيد فيه خير في دينه، فإذا لم يكن كذلك فإياك وإياه؛ بل ينبغي لك أن تحذره، وقد رُوي فيما قلتُه أخبارٌ تدل علىٰ العاقل الحازم، لا يُجالس من الناس إلا من تعود عليه منفعته، ممَّن يُرغِّبه في العلم والآداب، والأخلاق الشريفة، وينهاه عن الأخلاق الدنية.

حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الحميد الوَاسِطي، قال: حدَّثنا هارون بن عبد الله الحمَّال، قال: حدَّثنا سيَّار بن حاتم، قال: حدَّثنا جعفر بن سليمان، قال: سمعت مالك بن دينار يقول: لخَتَنه المُغيرة: انظر يا مُغيرة كل أخٍّ وجليس ومن تُحِب، لا تستفيد منه خيرًا، فانبُذ عنك صحبته».

حدَّثنا أبو خُبيب العباس بن أحمد البِرْتي، قال: حدَّثنا محمد بن ميمونة الخيَّاط، قال: حدَّثنا سفيان ابن عُيينة، قال: حدَّثنا بُريد بن عُبيد الله بن أبي بُردة، عن أبيه، عن أبي موسىٰ يبلغ به النبي ﷺ، قال: «مثل الجليس الصالح مثل العطَّار إن لم يُحْذَكَ من عطره علقَكَ من ريحه، ومثل الجليس السوء مثل الكير إن لم يُحرِقْكَ نالك من شرره».

ورُوي عن شعيب بن حرب أنه قال: «لا تجلس إلا مع أحد رجلين؛ رجل جلست معه يُعلِّمك خيرًا فتقبل منه، أو رجل تُعلِّمه خيرًا فيقبل منك، والثالث أهرب منه».

حدَّثنا أبو محمد هارون بن يُوسف، قال: حدَّثنا محمد بن أبي عمر العدني، قال: حدَّثنا سفيان، عن داود بن شابور، أنه سمع شهر بن حوشب يقول: قال لقمان لابنه: «يا بنيَّ إذا رأيت قومًا يذكرون الله عَزَّوَجَلَّ فاجلس معهم، فإنك إن تكن عالمًا ينفعُك علمك، وإن تكن جاهل يُعلموك، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يطِّلع عليهم برحمة فيُصيبك معهم، وإذا رأيت قومًا لا يذكرون الله عَزَّوَجَلَّ فلا تجلس معهم، فإنك إن تكن عالمًا لم ينفعك علمُك، وإن تكن جاهل يزيدوك غيًّا، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ يطَّلِع عليك بسخطه، فيصيبك معهم».

قال محمد بن الحُسين: جميع ما ذكرته في هٰذا الكتاب يدل علىٰ أنه لا ينبغي أن تُجالس إلا من يعود نفعه عليك ممن إذا فارقتوه أراكَ فهمًا وعلمًا وأدبًا، وإلا فانبُذ عنك مجالسته واحذره علىٰ دينك.

عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ترجمة بيَّن فيها (فضلُ مجالسةِ العُلمَاءِ)، بعد بيان فضل العلم، فإن للعلم أهلًا؛ هم العلماء ولمجالسهم فضل رُوي فيه أحاديث وأخبار، منها حديث أبي أُمامة الذي صدَّر به المصنِّف: «إن لقمان الحكيم قال لابنه يا بني عليك بمجالسة العلماء»، الحديث أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جدًّا، وإنما يُروىٰ موقوفًا من كلام لقمان لا ذكر فيه للنبي ﷺ، وهو الذي أسنده المصنف بعده من حِكَم لقمان في أمره لابنه بمجالسة العلماء، وعلَّل لقمانُ ذلك بقوله: «فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُحييٰ القلوبَ بنور الحكمة، كما يُحيي الأرض بوابل السماء»، فكما أن الأرض الميتة إذا مُطِرت بوابل السماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فكذلك القلوب إذا لامستها أنوارُ الحكمة والعلم فإنها تحييٰ.

ثم أتبعه بحديث عبد الله بن عمرو في خبر المجلسين وفيهما ميله ﷺ إلىٰ المجلس الذي يتعلمون فيه الفقه ويُعلِّمونه وتعليله بقوله: «وإنما بُعثت معلمًا، ثم جلس إليهم»، وهذا الحديث عند ابن ماجه وإسناده ضعيف.

ثم أتبعه بأثرٍ أسنده عن ابن سيرين في قصَّة دخوله مسجد البصرة والأسد بن سَريع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقصُّ علىٰ الناس مُذكِّرًا، **والمُذكِّر اسمٌ للقاصِّ الذي يعظ الناس**، وفي المسجد حلقة من أهل الفقه جلوسًا في ناحية أخرىٰ، ولم يزل محمد بن سيرين متردِّدًا في الجلوس إلىٰ أي الحلقتين حتىٰ خرج من المسجد، ثم رأىٰ ما رأىٰ في المنام، وفي هٰذا الخبر ضَعفٌ، لكنَّ مثله مما يُروىٰ استئناسًا.

ثم أسند المصنف بعده قول أبي الدَّرداء: «من فقه الرجل؛ مجلسه ومدخله ومخرجه مع أهل الفقه»، وهذا الخبر يُروىٰ عن أبي الدَّرداء من غير وجه، وهو خبر صحيح عنه، أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» وغيره، وأقلُّ أحوالِه أنه حسن، وفيه أصلٌ عظيم في تمييز فقهِ الرَّجل، وهو أن العاقلَ الفقيه من يُلاحِظُ صُحبته في مجلسِه ومدخلِه ومخرجِه، بأن يكون مع أهل الفقه؛ لأنه إذا رامَ أن يُحصِّل الفقه والعلم والدِّين؛ فليصحب أهله، فإذا كان خروجه ودخوله وجلوسه هو معهم، فإنه ينال العلم، وأما من يصحب البطَّالين فإنهم يُردونَهم في بطالتهم، والجمع بين الصُّحبتين صعب، فينبغي أن يتخيَّر الإنسان في صحبته مجلسًا ودخولًا وخروجًا من يكون مُعينًا له علىٰ الخير والعلم والهُدىٰ، فإن التلذُّذَ بالمشاركة في طلب العلم أعظم من التلذُّذِ بالمشاركة في الرَّحلات والخلوات التي لا ترجع علىٰ الإنسان بكبير نفع، ويمكنه أن يهْتَبِلَ مع أهل الفقه أوقاتًا ينتفع فيها بترويح نفسه بأنواع الملذِّذات التي أباحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخلق، ومن أراد أن يُحصِّل العلم؛ فليصحب أهله شيوخًا وتلاميذا.

ثم أتبع ذلك بما جاء عن أم الدرداء لما قيل لها: «أمللناكِ، فقالت -مُتعجِّبة مستنكرة- أمللتموني، لقد طلبت العبادة في كل شيء كما أصابت لنفسي شيئًا أشفىٰ من مجالسة العلماء ومذاكراتهم»، وأم الدرداء هٰذه هي أم الدرداء الصَّغيْرَة؛ لأنها هي التي تأخَّرت وأدركها عون بن عبد الله، وأما أم الدرداء الكبيرة فقد ماتت قديمًا، وكلاهما زوج لأبي الدَّرْدَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي خبرها أنَّ من أعظم المجالس التي ينتفع بها الإنسان مجالس مُذاكرة العلم التي تكون عند العلماء.

ثم ذكر الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ سؤالًا يستفهم فيه سائله عمن يدخل مسجد الجامع فيشاهد خلقًا كثيرًا قد اجتمعوا كلهم يُشار إليه أنهم علماء، فإلىٰ أي الناس تأمرنا أن نجلس إليه منهم؟ ومثل هٰذا مثل العلماء الجالسين في البلد، فأمر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ المرء أن يتخيَّر، فينظر من يُعلِّمُه علمًا يجب عليه، ويُفقِّهه فيه، فإنه يلزمه ليحصُل له الانتفاع به.

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أخبارًا في ذلك، استفتحها بحديث ابن عباس: «يا رسول الله؛ أي الجلساء خير؟ قال من ذكَّركم بالله رؤيتُه، وزاد في علمكم منطقُه...» إلىٰ آخره، وهو حديث أخرجه أبو يعلىٰ

الموصلي، وإسناده ضعيف.

ثم أتبعه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بالبيان بأن هٰذه الصفة هي لمجالس العلماء، فإن مجالس العلماء هي التي تُرغِّب في الآخرة، وتدل علىٰ العلم، وكذلك لا ينبغي أن يتَّخذ الإنسان من الأصحاب والأخدان والإخوان والخِلَّان إلا من يستفيد منهم خيرًا في دينه، فإن لم يكن كذلك فإن الأمر كما قال: «فإياك وإياه، بل ينبغي لك أن تحذره».

ثم ذكر ما جاء عن مالك بن دينار أنه كان يقول: «انظر يا مُغيرة، كل أخ وجليس ومن تحب لا تستفيد منه خيرًا؛ فانبُذ عنك صحبته»، وفي إسناده ضعف.

ثم أتبعه بحديث بُريد بن عبد الله عن أبيه عن أبي موسىٰ، وهو في «صحيح مسلم» في تمثيل الجليس الصالح والجليس السوء «وأن الجليس الصالح مثل العطَّار الذي يبيع الطيب، فهو إن لم يُحذِكَ- أي لم يعطك من عطره- علَقَك من ريح في بدنك وثوبك، ومثل الجليس السوء مثل الكير»؛ وهو نافخ الكير، والمراد به الحدَّاد الذي يصنع الحديد، ويُطوِّعه بالنار في المحل المُعَد لذلك، فإن من كان كذلك «إن لم يُحرقك نالك من شرَرِه، وكذلك الجليس السوء».

ثم ذكر ما جاء عن شعيب بن حرب أنه قال: «لا تجلس إلا مع أحد رجلين؛ رجل جلست معه يُعلمك خيرًا فتقبل منه، أو رجلًا تُعلمه خيرًا فيقبل منك، وأما الثالث فاهربْ منه»، وهذا معنىٰ ما رواه أبو نُعيم الأصبهاني في كتاب «الحلية» في وصية علي بن أبي طالب لكُمين بن زياد، وفيه أنه قال: «يا كُمين؛ الناس ثلاثة؛ عالم ربَّاني، ومتعلم علىٰ سبيل نجاة، وهمج رعاعٌ أتباع كل ناعِق»، فالعالم الرباني هو الذي يُعلمك فتقبل منه، والمتعلم هو الذي تعلمه خيرًا فيقبل منك، وأما الهمج الرعاة فهم الذين ينبغي أن تهرُب منهم.

ثم ذكر من مواعظ لقمان وصيَّته لابنه فيمن يجلس إليهم، وألا يجلسَ مع كلِّ أحد، بل يجلس فيمن ينفعه ويُقرِّبه إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا كله يدل علىٰ أنه لا ينبغي أن يُجالس الإنسان أحدًا إلا إذا انتفع به، وأما ما عدا ذلك من الجلساء، فإنهم يُعرضُ عنهم.

***

باب ذكر تواضُعِ العالمِ والمتعلِّم

قال محمد بن الحُسين: واعلم –رحمك الله– أن الذي يحتاجه العالم والمتعلم مما ينبغي لهما أن

يتمسَّكا به للإنتفاع بما تقدَّم ذكرنا له، هو التواضع، فمن صفة تواضع المتعلم للعالم؛ ألا يأنَف أن يتعلم العلمَ من صغير أو كبير، وممن هو دونه في منزلة الدنيا، وأن يقبلَه منه قبولًا حسنًا، ويشكر الله عَزَّوَجَلَّ على ما علَّمه، ثم ليشكر من علمه من سائر الناس.

ومن التواضع أن تكون إذا سمعت علمًا لم يكن عندك، فلا تدَّعي أنك كنتَ تعلمه، فيزهدُ فيك من يُعلمك، ولكن تواضع له وأخبره أنك لم تعلمه حتىٰ علَّمتني أنت الساعة، واعلم أن من التواضع سؤالك عما يغيب عنك، كنت به جاهلا،...، ويُقال مثلك ... إلىٰ الساعة...، وإنما هو غاشٌّ لك، فلا ... يزيدك الله الكريم رفعة عنده وعند من علَّمَك عن الله عَزَّوَجَلَّ.

واعلم –رحمك الله– أن الذي يمنع كثيرًا من الناس عن التواضع في المسألة للعلماء عمَّا قد جهلوه مما هو واجب عليهم علمه والعمل به خصلتان؛ الحياء والكبر، هما التي قد منعتك كثيرًا من الناس عن طلب العلم، وما هٰذا لهم بمحمود، وذلك أنه منعهم ما ذكرنا عن السؤال لما يجب عليهم، فقد رضوا لأنفسهم بالإقامة علىٰ الجهل، فلما حُرِموا التواضُعَ في طلب العلم الواجب، أُحرِموا التوفيق، ورُوي عن مجاهد أنه قال: «لا يتعلم مستحي ولا مستكبر»، وكذا رُوي عن سفيان بن عُيينة.

واعلم أنك إذا تواضعت للعلماء أحبُّوك وأفادُوك، وإذا تعاظَمت عليهم، وتكبَّرت وأريتهم أنك مستغنٍ عنهم؛ مقتوك وكرهوا أن يُفيدوك.

قال محمد بن الحُسين: أما خطابي لمن يُعلِّم الناس فينبغي له: أن يشكر الله، ويتواضع لمولاه الكريم، ويعلم أنه قد خصَّه بخاصة خير، وعلَّمه علمًا حرمه غيره، وجعله وارثًا من ورثة الأنبياء ولم يجعله جاهلًا بما الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وإنَّ كثيرًا من الناس قد احتاجُوا إلىٰ علمه، فعليه أن يتواضع لمن يتعلم منه العلم ويرفُق به، ولا يحتقر من يتعلم منه، ويُعلِّمه: إني مثلك كنت جاهلًا، حتىٰ علَّمني الله عَزَّوَجَلَّ، ويُقرِّب علىٰ المتعلِّم ما يخاف بُعدَه، فمن فعل ذلك أحبَّه الله عَزَّوَجَلَّ وحبَّبه إلىٰ عباده ورفع قدره، ونوَّه باسمه، وكان بحسن تواضعه رفيعٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ وعند من عقَل، وأنا أذكر من الأخبار ما يدور علىٰ ما حشَتْ عليه.

حدَّثنا أبو بكر بن أبي داود السِّجِستاني، قال: حدَّثنا محمد بن يحيىٰ...، قال: حدَّثنا أحمد بن عبد الله...، وأخبرنا أبو عبد الله أحمدُ بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، قال: حدَّثنا محمد بن بكَّار، قال: حدَّثنا عَنْبَسَةُ بن عبد الواحد، عن عمرو بن عامر البجَلي، قال: قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعلَّموا العلم وتعلَّموا العلم بالسكينة والحِلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ويتواضع لكم من تُعلِّمون، ولا

تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقومُ علمكم بجهلكم».

أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الحميد الواسطي، قال: حدَّثنا محمد بن يحيىٰ الأزدي، قال: حدَّثنا أبو بكر محمد بن الجعد القُرشي، قال: حدَّثنا عبد الرَّحمٰن وعبد الله ابنا بُديل العُقَيلي، عن أبي سلَمَة صاحب اللؤلؤ، عن الحسن أن عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري: «إن أحقَّ الناس بالتواضع لله عَزَّوَجَلَّ أحسنُهم تعبُّدًا، وأكثرُهم علمًا»، وكيف يكون عبدًا عالمًا، وقد أخطأ أفضل العبادة، إنَّ التواضع أفضل العبادة والعلم، فإذا العالم لم يتواضع لله عَزَّوَجَلَّ في علمِه؛ عاد بعد علمه جاهلًا، وكان علمُه عليه ولا له، وعسىٰ أن يقول الناسُ: فلان عالم، وهو مكتوب عند الله عَزَّوَجَلَّ من الجاهلين، وهناك أدرك الشيطان بُغيتُه التي يريد من أهلِ العلمِ، فاحذر ذلك الباب، فإن الله عزيز».

حدَّثنا جعفر بن محمد الصَّنْدَلِي، قال: حدَّثنا الفضل بن زياد، قال: حدَّثنا عبد الصمد بن يزيد، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يحب العالم المتواضع، ويُبغض العالم الجبَّار، ومن تواضع لله عَزَّوَجَلَّ ورَّثه الله عَزَّوَجَلَّ الحكمة».

حدَّثنا أبو الحسن علي بن إسحاق زاطِيَا، قال: حدَّثنا عُبيد الله بن عمر القواريريُّ، قال: حدَّثنا حماد بن زيد، قال: سمعت أيوبَ يقول: «ينبغي للعالم أن يضع الرماد علىٰ رأسه تواضعًا لله عَزَّوَجَلَّ»، فكلما تواضع للمتعلم من يعلِّمه من العلماء؛ ازدادَ تعلُّقه بالعلم، والله الموفِّق... .

عقد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بابًا خامسًا ترجم له بقوله: (باب ذكر تواضع العالم والمتعلم)؛ لأن العلم يقوم علىٰ عُمَدٍ متينة وأخلاق جليلة، من آكَدِها التواضع، **وحقيقة التواضع قبول الحق وإعظام الخَلْق**، فإنَّ النبي ﷺ أرشد إلىٰ حقيقةِ ضده، وهو **الكِبْرُ** كما في «صحيح مسلم»، ففسَّره بقوله: «**بطَرُ الحق وغمْطُ الناس**»، أي: رد الحق واحتقار الناس، فيكون التواضعُ مقابلَه، وهو قَبول الحق، وإعظامُ الخلق، وهو من آكد الأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها العالم والمتعلِّم، ومن ذلك (ألا يأنفَ أن يتعلم العلم من صغير أو كبير وممن هو دونه، وأن يقبل منه قبولًا حسنًا، وأن يشكر الله علىٰ ما علَّمه، وأن يشكر من علَّمه من الناس، ومن التواضع أنك إذا سمعت علمًا لم يكن عندك، فلا تدَّعي أنَّك قد كنت تعلمُه، فيزهَد فيك من يُعلِّمك، ولكن تواضع له، وأخبره أنك لم تعلمه حتىٰ علَّمتني أنت الساعة)، فإنه من أظهَر للأشياخ استفادته منهم أظهَروا له جواهر العلم، ومن تكبَّر بعلمه صرفوا عنه جواهرَه.

ثم ذكر المصنِّف أن الذي يمنع كثيرًا من الناس عن التواضع في المسألة للعلماء عما جهلوه خَصْلتَان الحياء والكبر، وفي ذلك الآثار الصحيحة الذي علَّقه البخاري في «صحيحه» ووصله ابن عبد

البر وغيره عن مجاهد بن جبر أنه قال: «لا يتعلم العلم مستحيي ولا مستكبر»، فالحياء والتكبُّر يمنعان الناسَ عن مسألة العلماء.

ولا ينالُ العلم إلا من لم يمنعه الحياء والكبر عن سؤاله والتماسه، فعلىٰ الإنسان أن يتواضع لمن أفاده، وأن يحبَّه وألا يتكبَّر عليه، ومن وفَّقه الله لتعليم النَّاس فينبغي له أن يشكر الله، وأن يتواضع له، وأن يعلم أن ما وصله من الخير فإنه محضُ فضْل الله ﷻ الذي منحه إياه وحرمه غيره، وجعله وارثًا من ورثة الأنبياء، ولم يجعله جاهلًا، فتِلْك نعمة عظيمة أن أخرجك الله ﷻ من ظُلمة الجهل إلىٰ نور العلم، ولم تسقط من ملاحظة ربِّك ﷻ لك بالعناية، فلو شاء الله ﷻ لجعلك متلطِّخًا في دَنَاءاتِ المعاصي والخطايا جافلًا مع أهلها، ولكن الله اجتباك وهداك، وعلَّمك ما لم تكن تعلم، وجعلك حِلْسَ بيوت الله لتتعلَّم دينه الذي يُقرِّبك إليه، وهذه نعمة عظيمة من شهِدها زاده الله ﷻ منها، ومن غفل عن هٰذه النعمة، فقد غفلَ عن نعمة عظيمة؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في أبيات له في النونية:

لو شاء ربُّك كنت أيضًا مثلَهُم ... فالقلب بين أصابع الرَّحمٰن

ثم أورد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في ذلك من الآثار ما جاء عن عمرَ، وفي إسناده ضَعفٌ، لكنَّه يُروىٰ من غير وجه أنه كان يقول: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من تعلمون ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم»، ثم أسند رسالته إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري وفيها هٰذا المعنىٰ وإسنادها ضعيف.

ثم أتبعها بآثار صِحاح عن فضيل بن عياض، وعن أيوب السختياني؛ أن الفضيل قال: «إن الله يحب العالم المتواضع ويُبغض العالم الجبار، ومن تواضع لله ورَّثه الله الحكمة»، وعن أيُّوب السختياني أنه قال: «ينبغي للعالم أن يضع الرماد علىٰ رأسه تواضعًا لله ﷻ»، وهذا الكلامُ من الجنسِ الذي تقدَّم القول فيه أنَّ السلف لا يريدون حقيقته، وإنَّما يريدون الإنباه إلىٰ الأصل الأعظم، فإنَّ أيوب لم يُرد أن يكون من أحوال العالم أن يأخذ رمادًا ويضعَه علىٰ رأسه، ولكن مقصوده أن يزداد في التَّواضع حتىٰ يكون بمنزلة من يضع الرماد علىٰ رأسه؛ إذلالًا لنفسه لا حقيقة ذلك، وكلمَّا تواضع المعلِّم والمتعلم زاد تعلُّقهم بالعلم وعظُم انتفاعهم به، والعلم خُلُق وأدَب، قبل أن يكون مسائلَ وفصولًا، فمن أخذ بالأدب حصَّل العلم، ومن ضاع منه الأدب لم يُحصِّل العلم، وأعظمُ أدبِه أدبُ النفس، كما جاء عن بعض من مضىٰ أنه كان يقول: «أدبُ النفس، ثم أدب الدَّرس»، فالمرء مأمور بأدب النفس في العلم، ثم يؤمر بأدب الدرس، حتىٰ يُحصَّله.

***

باب

أخبرنا الفِريَابي، قال: حدَّثنا هشام بن عمَّار الدمشقي، قال: حدَّثنا صدقة بن خالد، قال: حدَّثنا عثمان بن أبي عاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة الباهلِي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالعلم قبل أن يُقبَض وقبل أن يُرفَع»، ثم جمع بين أُصبعيه الوسطىٰ والتي الإبهام، ثم قال: «العالم والمتعلِّم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد».

حدَّثني أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ الحلواني، قال: حدَّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، قال: حدَّثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد بن سمعان، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ الساعة حتىٰ يُقبض العلم، ويكثُر الهرج، ويكثُر الكذِب وتظهرُ الفِتن، ويتقاربُ الزمان»، قالوا: يا رسول الله؛ وما الهرج؟ قال: «القتل».

وحدَّثنا الفِريَابي، قال: حدثنا عبد الرَّحمٰن بن إبراهيم الدمشقي، قال: حدَّثنا محمد بن سعيد بن عمر بن عبد الواحد وبشر بن بكر، قالوا: حدثنا ابن جابر -وهو عبد الرَّحمٰن بن يزيد بن جابر-، قال: حدَّثنا الزُهري، قال: سمعت عُبيد الله بن عبد الرَّحمٰن، يُحدِّث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يتقارب الزّمان ويُقبضُ العلم ويُلقىٰ الشُّحُّ وتظهر الفتن، ويكثُر الهرْج»، قال: قلنا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: «القتل والقتل».

حدَّثنا أبو العباس حامد بن شعيب البلخي، قال: حدَّثنا سُريج بن يونس، قال: حدَّثنا هُشيم، قال: حدَّثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ يُرفَعُ العلم، ويظهر الجهل».

حدَّثنا أبو بكر بن أبي داود، قال: حدَّثنا محمد بن بشار العبدي، ويحيىٰ بن حكيم، قالا: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، قال: حدَّثنا هشام بن عُروة، قال: حدَّثنا أَبِي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو، يقول من فِيهِ إلىٰ أُذُنِي: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبِضُ العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العالم بعلمه، حتىٰ إذا لم يترك عالمًا، اتَّخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

أخبرنا أبو أحمد هارون بن يوسف التاجر، قال: أخبرنا ابن أبي عمر -يعني محمد العدني-، قال:

أخبرنا سفيان بن عُيينة، عن هشام عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالا، فسُئِلوا، فأفتَوا بغير علمٍ فضلُّوا وأضلَّوا».

حدَّثنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد بن صاعد، قال: حدَّثنا الحُسين بن حسن المروزي، قال: حدَّثنا عبد الله بن المبارك، قال: أخبرنا هشام بن عُروة عن أبيه، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاصي، يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله -تبارك وتعالىٰ- لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن قبضه بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يترك عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا».

حدَّثنا أبو أحمد هارون بن يونس بن يوسف، قال: حدَّثنا ابن أبي عمر العدني، قال: حدَّثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل، قال: سمعت عبد الله بن مسعود؛ يقول: «هل تدرون كيف ينقص الإسلام؟، قالوا كيف؟ قال: كما يَنقص الدابة سِمَنُها، أو كما ينقص الثوب عن طول اللُّبس، وكما ينقص الدرهم عن الجَنِي، وقد يكون في القبيلة عالمان فيموتُ أحدهم فيذهب نصفُ علمهِم، ويموت الآخر فيذهب علمهُم كله».

حدَّثنا أبو العباس أحمد بن سهل الأشناني، قال: حدَّثنا الحُسين بن الأسود العِجْلي، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، قال: حدَّثنا وكيع، عن عبد الرَّحمٰن المسعودي، عن القاسم، قال: قال عبد الله بن مسعود: «تعلموا القرآن والفرائض، فإنه يوشك أن يفتقر الرجل إلىٰ علم كان يعلمه، أوْ يبقىٰ في قومٍ لا يعلمون».

حدَّثنا أيضًا أحمد بن سهل الأشناني ...، وأبو بكر بن عياش، وعبد الله...، عن شقيق بن سلَمة، قال: قال عبد الله: «تعلموا فإنَّ أحدكم لا يدري متىٰ يُختَلَفُ إليه».

قال محمد بن الحُسين: ... علىٰ طلب العلم، فهو من الله من جهات، حيث وطلب العلم...، ويحبُّون ما الناس عليه، فليقبض عمَّا يجب علمه أن يُقبَض عنه...، وما ينبغي أن ينبسِطَ إليه بعلم، فكان العلم كالمصباح الذي يُستضاء به في الظُّلمة، متىٰ ما كان السِّراج معه أمكنه أن يتوقع مكاره ما يخشىٰ من هٰذا الطريق، فإذا ما طفَأَ السراج تحيَّر في الظلمة وتأذَّىٰ بكثير من المكاره.

حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الحميد الواسطي، قال: حدَّثنا زهير بن محمد المرْوَزِي، قال: أخبرنا يعلىٰ بن عُبيد، قال: حدَّثنا محمد بن إسحاق، عن عمِّه موسىٰ بن يسار، قال: «بلغنا سلمان كتب إلىٰ أبي ذر «إن العلم كالينابيع يغشىٰ الناس فيختلجُه هٰذا وهذا، فينفع الله فيه غير واحد، وإن

حكمة لا يُتكلم بها: جسدٌ لا روح فيه، وإنَّ علمًا لا يخرج ككنزٍ لا يُنفَق، وإنما مثل العالم كمثل رجل حمَل سِراجًا في طريق، فيستضيء به من مرَّ به، وكلٌّ يدعو إلىٰ خير».

قال محمد بن الحُسين: وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ مثل العلماء في الأرضِ كمثل النجوم في السماء يُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، فإذا طُمِست النُّجوم يُوشك أن يضلَّ الهدىٰ».

قال محمد بن الحُسين: من اعتبر هٰذه الأمثال لم يُؤْثِر علىٰ طلب العلم شيئًا إلا ما لابد منه، وصبر علىٰ ما يلحقه فيه من المشقة، وإن ما يفعله ذلك من هو مُشفقٌ علىٰ دينه، يخاف عليه أشد من خوفه علىٰ نفسه، وماله، إن كان ذا بصيرة وعقل.

قال محمد بن الحُسين: رأس مال المؤمن دينه، حيث ما زال؛ زال معه، لا يُخلِّفه في الرجال، ولا منَّ عليه الرجال.

عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ **بابًا سادسًا** سقطت منه ترجمته، ومُضمَّن الأحاديث فيه دال علىٰ أنَّ المراد به **الإشارة إلىٰ قبض العلم**.

وأسند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فيه أحاديث عدة، أولها حديث أبي أُمامة: «عليكم بالعلمِ قبل أن يُقبَض»، وهو حديث رواه بن ماجه من الستة وإسناده ضعيف جدًّا.

ثم أتبعه بحديث أبي هريرة: «لا تقوم الساعة حتىٰ يُقبَض العلم»، وهو في «الصحيحين»، وفيه بيان أن العلم يُقبَض، والمراد بقبضه رفعُه، وقد جاء التصريح بذلك في حديث أنس بعده.

وهو «لا تقومُ الساعة حتىٰ يُرفَع العلم ويظهر الجهل»، وهو في «الصحيحين»، فقبض العلم رفعُه، وذلك كائن بقبض العلماء الذين هم أهل العلم، فيُقبَض العلماء، ويذهب العلم بموتهم، كما في حديث عبد الله بن عمرو بعد حديث أنس، وهو حديث مُخرَّج في «الصحيحين»، وفيه التصريح بأن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعًا، ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء، فيُرفع العلم بموتهم، فإذا لم يبق عالمٌ اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلُّوا.

ثم أتبع ذلك بأثر عبد الله بن مسعود وإسناده صحيح، وفيه أن ذهاب العلم بموت العلماء، كما قال: «وقد يكون في القبيلة عالمان، فيموتُ أحدهما فيذهب نصف علمهم، ويموت الآخر، فيذهب علمهم كُلُّه».

ثم أسند عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «تعلَّموا القرآن والفرائض، فإنه يوشك أن يفتقر الرجل إلىٰ علم كان يعلمه، أو يبقىٰ في قوم لا يعلمون»، وفي إسناده ضعف، والفرائض يُراد بها تارة الأحكام الواجبة

التي افترضها الله عَزَّوَجَلَّ، ويُراد بها المواريث المقسومة، فإن هٰذا وهذا يوجد في كلام السلف رحمهم الله تعالىٰ.

ثم ذكر عن ابن مسعود ما صحَّ عنه أنه قال: «تعلَّموا فإن أحَدَكم لا يدري متىٰ يُختَلَف إليه»، فإن متىٰ يحتاج إليه الناس فيرجعون إليه مرة بعد مرة، فإن الاختلاف إلىٰ الرجلِ الرجوعُ إليه والأخذ عنه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما يدل علىٰ أن العِلم بمنزلة السِّراج، وإذا طَفِيَ السراج تحيَّر الناس في الظلمة، وأورد فيه كتاب سلمان إلىٰ أبي ذر، وهو أثر إسناده منقطع.

ثم أورد معلَّقًا حديث «إن مثل العلماء في الجر كمثل النجوم»، وهو عند أحمد بإسناد ضعيف، وتقدَّم في فضل العلماء من نعت صفتهم ما يُغني عنه، وهذه الأحاديث المُخبرة عن قبض العلم تحمل الإنسان علىٰ الشفقة علىٰ نفسه أن يفوتَه دينه، فإذا قُبض العلم ووقع الجهل، من لم يكن عالمًا متعلمًا؛ فإنه يقع في الضلال، ويتحير في أمر دينه، ورأس مال المؤمن دينُه، فينبغي له أن يجتهد في طلب العلم قبل أن يُقبَض أهلُه.

❊❊❊

ثم اعلم -رحمك الله- أنا وإياك في زمان كثير الفتن من جهات كثيرة، إن لم يكن مع الإنسان علم بالخلاص من كلِّ فتنة ترد عليه، وإلا فقد هلك، وهكذا أخبرنا نبينا ﷺ.

حدَّثنا أبو العباس عبد الله بن الصقر السُّكَّري، قال: حدَّثنا محمد بن مصفىٰ، فقال: حدَّثنا الوليدُ بن مسلم، قال: حدَّثنا الوليد بن سلمان بن أبي السائب، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ قال: «ستكون فتنٌ يُصبحُ الرجل فيها مؤمن ويمسي كافرا، إلا من أحياه الله بالعلم».

حدَّثنا ...[1] قُتيبة بن سعيد، قال: حدَّثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سِنان، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «يكون بين يدي الساعة فتنٌ كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويُمسي كافرًا، يبيع أقوام من دينهم بعَرَضٍ من الدنيا».

قال محمد بن الحُسين: فمن لم يكن معه علم عند حلول الفتن هلك، فإن قال قائل: فما معنىٰ قول النبي ﷺ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن بقبْضِ العلماء حتىٰ إذا لم يترك عالمًا، فاتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»؟.

---

(١) قال شيخنا: هو لم يُدرك قتيبة، فهنالك سقط هنا.

قيل له: -والله أعلم- كل ما فسد الزمان -وفساده فساد أهله-؛ رغبوا أهلُه عن طلب العلم، فقلَّ العلم فيهم، فيقبِضُ الله من كل زمان علماءَه الذين قد حفظوا العلم، ورَعَوا حقه وقاموا لله ﷻ بشطر كبير من العلم، فنفعهم الله ﷻ بالعلم ونفع بهما خلقًا كثيرًا، فلما قبض الله ﷻ من هو مهد القبض علىٰ العلم في الكتب عند قوم لا يعملون به، ولا يحفظونه ولا يعرفون الأحكام، إلا أنه يُشار إليهم علىٰ الظاهر أنهم من أهل العلم، وهُم إلىٰ الجهل أقرب، فيُسأل أحدهم عن الشيء لا يعلمه، فيكره أن يقول: لا أعلمه، فتسقط رتبته عند الناس؛ فيُفتي بغير علم، فيُحِلُّ ما حرَّم الله ﷻ، ويُحرِّم ما أحل الله فيُضل عن طريق الحق، ويهلك من يتبعه علىٰ ذلك، وهذا كثير في زماننا، يصفحه...، لأنك تجد في الناس من قد قرأ القرآن، وقد أيسر الله بحفظ القرآن، وصار له به رُتبة، ولم يتعلم أحكامه، ولا سنة الرسول ﷺ ولا أحوال الصحابة رِضوان الله عليهم، ولا يميِّزُ عليهم ما له مما هو واجب عليه علمه والعمل به، فإذا... فريضةٌ أو...، إنه يُشار إلىٰ أنه من العلم...، فيُسأل عن الشيء...، في الخصومة من جيرانه، فيستحيي أن يقول لا أعلم، وامضوا فاسألوا غيري، فإنه إن قال هذا؛ نقصت رتبته عند جيرانه، فيتكلف لهم ما لا يحل له، فيُضِل نفسه عن طريق الحق، ويُهلك غيره، وربما فعل بعض من قد علَّمه الله ﷻ طرفًا من العلم، أمرًا من الأمور، وذلك الفعل حق فلا يوافق هٰذا الذي له رتبة، فيُنكر الحق ويعيبُ علىٰ فاعل كل ذلك، لما قد استحكم فيه من حب الرياسة والإشارة إليه، وهذا كثير في الناس، يعرفه من ميَّز بين العلم والجهل، وبين الحق والباطل، والله المستعان، ما أعظم زمان نحن فيه، فهذا معنىٰ قبضُ العلم، والله أعلم.

بعد أن حقق المصنِّف قصد العلم وحثَّ المرء علىٰ حفظ رأس ماله من دينه، بيَّن أن هٰذا يتأكد في أزمنة الفتن، فإن الإنسان إن لم يكن فيها معه علم بالخَلَاص في كل فتنة ترد عليه، وإلا هلك، كما جاءت الأخبار عن نبينا ﷺ بهذه الفتن.

وأورد المصنف في ذلك أحاديث منها حديث أبي أُمامة «ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمنًا...» إلىٰ آخر الحديث، وهو عند ابن ماجه وإسناده ضعيف، ويُغني عنهما ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا، يبيع دينَه بعَرَض من الدنيا»، ثم أتبعه بحديث أنس بن مالك في هٰذا المعنىٰ، وهو عند الترمذي وإسناده حسن.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن معنىٰ قوله ﷺ: «حتىٰ إذا لم يَتْرُك عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا

جُهَّالًا»، أن هؤلاء الرؤوس الجُهَّال معهم علم في الظاهر، وهم إلىٰ الجهل أقرب، فيغتر الناس بذلك، ويُبادرونهم بالمسائل؛ فيُبادرون بجوابها لئلا ينكسرَ الجاه، أو تذهب الرتبة أو يسقط من عيون الناس، فيَضِل ويُضِل الخلق.

❊❊❊

باب أي العلم أولىٰ للإنسان أن يتعلمه

قال محمد بن الحُسين: فإن قال قائل قد رغَّبتنا في العلم وحذَّرتنا الجهل، فأي العلم أولىٰ بأن نُشغل أنفسنا به حتىٰ نخرج من باب الجهل؟

فإني أقول لك: فإني أحُثُّكَ علىٰ تعليم القرآن وضبطِه، فإذا سهَّل الله الكريم لك ختمه، باختيار حرف من حروف أحد الأئمة السبعة، فاحمدِ الله الكريم واشكره، وداوم علىٰ كثرة الدرس له.

ثم اشتغل بعلم معرفة الحلال والحرام والأحكام التي أنزل الله ﷻ بها في كتابه ونهاك عن أشياء لا يسعك جهلُها.

ثم اطلب علم الفرائض وهي المواريث التي ينبغي لأهل القرآن ألا يجهلوها.

ثم علم السنن التي تبيِّن للعباد معنىٰ الكتاب، أما سمعت الله ﷻ قال في كتابه عن نبيه ﷺ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وذلك...، وهكذا الزكاة والصيام والحج والجهاد، وأمر الله ﷻ في كتابه... عليهم، وبيَّنها الرسول ﷺ كيف يؤدَّىٰ كل فرض منها، وفرض علىٰ العباد طاعة الرسول ﷺ، وحذَّرهم أن يخالفوه، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وقال ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢]، في غير موضع من كتابه، قرَن الله ﷻ طاعته بطاعة رسوله الله ﷺ، وليس يُعلَم هٰذا إلا بمعرفة السنن والآثار، فآمُر من قرأ القرآن يطلبُ من السنن ما ينفعه بها، و يكون المراد من الطلب يتفقَّه بها في دين الله ﷻ، ليعرف بها أداء الفرائض واجتناب المحارم، ويعرف بها علم ما تقدم ذكرنا له في كتابنا، ويطلب علم سنن صحابته رضي الله عنهم، وينظر في الفقه الذي يعرف معاني السنن، ويُجالس الفقهاء ويتعلم منهم ما يجب عليه علمه حسب ما تقدَّم ذكرنا له، ويكون مراده من طلب العلم أنه يريده لنفسه؛ لينتفي

عنه الجهل، ويعبد الله عَزَّوَجَلَّ فيما افترض عليه بعلم، فمن كان هٰذا مراده في طلب العلم نفعه الله عَزَّوَجَلَّ ونفع به ووفَّقه، وكثَّر له قليلَ علمِه، وبارك له فيه.

فإن قال قائل: فإني قرأت القرآن ولست أطيق أنا أكتب العلم، ولم آخذ نفسي بكتابة الحديث، فبما تأمرني؟

فإني أقول له: عليك بمجالسة العلماء الذين ينفعونك في دينك...، علم معرفة ضربِ أمثاله، طلب العلم بمعرفة علم حلاله وحرامه، واحذر أن تكون ممّن يُتعب نفسه بحفظ حروفه، ولا يُبالي تضييع حدوده، وإذا قرأت القرآن اقرأه بحرف، ويكون مرادك من الله، ما ثم ترجو أن يقع لك فهم، لا يكون مرادك متىٰ أختم السورة، واجتهد أن تتخلّق بأخلاق أهل القرآن الذين ينفعهم الله عَزَّوَجَلَّ بتلاوة القرآن، وبانوا بأخلاقهم الشريفة عن أخلاق غيرهم، واستعن بالله الكريم علىٰ ذلك.

حدَّثنا أبو الفضل العباس بن يوسف الشَّكِّي، قال: حدَّثني عبد الأعلىٰ بن سالم، قال: حدَّثنا شعيب بن حرب، قال: حدَّثنا مالك بن مغوَّل عن المُسيِّب بن رافعٍ، قال: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرَف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يُفطرون، وبورعه إذا الناس يُخلِّطون، وبتواضعه إذا الناس يختالون».

حدَّثنا أبو بكر بن داود السجستاني، قال: حدَّثنا أبو طاهر أحمد بن عمرو المصري، قال: أخبرنا عبد الله بن وهب، قال: أخبرني حيوة بن شُريح، عن عقيل بن خالد، عن سلَمة بن أبي سلمة بن عبد الرَّحمٰن، عن أبيه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب علىٰ سبعة أحرف، زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكمٌ ومتشابه وأمثال، فحُلُّوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عما نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكَمه وآمنوا بمتشابهِهِ وقولوا: آمن به كل من عندِي ربنا».

قال محمد بن الحُسين: واعلم–رحمك الله– أن كتبنا كتابًا رسمناه بكتاب «فضائل القرآن»، وفي أحكامه معرفة حلاله وحرامه وواجبِه ومحسنه والإيمان بمتشابه وأمثالِه، وفيه ما يَحتاج إليه أهل القرآن وتعلمهم له.

ثم اعلم –رحمك الله– أن أخلاق أهل القرآن في هٰذا الكتاب مُعلَّقة... علىٰ طالب كل علم... عَزَّوَجَلَّ رفعه، ولهذا فيما ... ورهبة فيما ... ورغَّبه في الأخلاق الشريفة والتنزُّه عن أخلاقه الدنيئة؛ لأن العلم حياة قلوب، به يُعرف الحق من الباطل به يُعرف الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والضار من

النافع، ويَعرف ما له وما عليه.

حدَّثني أبو القاسم؛ عبد الله بن محمد العَطْشِي المُقرئ، قال: حدَّثنا أبو حفص عمر بن محمد بن حكم النسَّائي، قال: حدَّثني يحيىٰ بن خال بن يحيىٰ المصري، قال: سمعت إسماعيل بن يحيىٰ يقول:

بنور العلم يُكشَفُ كُلُّ رَيبٍ ... ويُبْصِرُ وجهَ مطلبه المُريدُ
وأهلُ العلم في رَحْبٍ وأُدْبٍ ... لهم مما اشتهوا أبدًا مَزيْدُ
تعالوا في عُلُوِّ العلم حتىٰ ... أرَاد بهم توافقُ ما يُريدُ
فإن سَكَتُوا فَذِكْرُهُم الخَفَاءُ ... وإنْ نَطَقُوا فقَولُهُم سَديْدُ

وحدَّثني أبو القاسم العطْشِيّ، قال سمعت أبا حمزة الزاهدي يقول: «ومن كلام الأبرار من عمل بما يعلم، وُفِّقَ لعلم ما لم يعلم، ومن وجد منفعة علم عُني بالتزوُّدِ منه، ومن ذاق حلاوة العلم تجرَّع مرارة طُرُقِهِ، ومن صفت فكرته؛ استلذَّ حلاوته، واستوحش ممن شغلَه، ومن توكَّل علىٰ الله تعالىٰ حسُنت من الله تعالىٰ معونته وقضىٰ له مولاه حاجته».

حدَّثني أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البردعي في المسجد الحرام، قال: حدَّثنا بحر بن ياسر الخولاني، عن عبد الله بن وهبٍ، قال: أخبرنا عبد الرَّحمٰن بن زياد بن أنعم المَعَافِري، عن عبد الرَّحمٰن بن نافع التاريخي، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، أن رسول الله ﷺ قال: «العلم ثلاثة لما سوىٰ ذلك، فهو فضل، آية مُحكمة وسنة قائمة وفريضة عادلة».

قال محمد بن الحُسين: ... العامِل... من إذا... علم ما له وما عليه، ولن يؤخذ إلا من كتاب...، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن اتبعهم بإحسان، وقول أئمة مسلم ومن شغل نفسه بطلب هذا، ثم استعان الله الكريم أن يجعله لوجهه خالصا، وأن ينتفي عنه الجهل كان إن شاء الله ممن قال النبي ﷺ: «إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ بعبده خيرًا فقَّهه في الدين».

ختم المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كتابه بهذه الترجمة التي فيها فيها تكرار ما تقدَّم من طلب العلم الواجب، فذكر فيها أولىٰ العلم الذي ينبغي أن يتعلَّمَه الإنسان من كتاب الله وسنة النبي ﷺ، ومعرفة الحلال والحرام، وذكر في ذلك آثارًا منها أثر ابن مسعود: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرَف بليله...» إلىٰ آخره، وإسناده حسن، ثم أتبعه بحديثٍ عن ابن مسعود مرفوعًا: «كان الكتاب الأول...» إلىٰ آخره، وإسناده ضعيف.

ثم أعاد المصنِّف ما أراد بيانه من رجوع العلم إلىٰ المهمّات، وأورد في ذلك حديث عبد الله بن

عمرو: «العلم ثلاثة، فما سوىٰ ذلك فهو فضل» أي زائد عما ينبغي أخذه، وهذا الحديث قد رواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرَّحمٰن بن زياد بن أَنْعُم بهذا الإسناد، وإسناده ضعيف، **وعبد الرَّحمٰن هو ابن رافع التَّنُوخِي وليس ابن نافع، كما وقع في هٰذه النسخة**، فينبغي أن يشتغل الإنسان بمهمات العلم التي ترجع إلىٰ هٰذه الأصول العظيمة، فإذا شَغَل الإنسان نفسه بهذا، ثم استعان بالله أن يجعل طلبه للعلم لوجهِهِ، كان له حظ ممن قال فيه النبي ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين».

وهذا آخر التقرير علىٰ هٰذا الكتاب.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ عبده ورسوله محمدٍ، وآله وصحبه أجمعين.